الباب الثاني

معارك إسلامية خالدة

الفصل الأول : الغزوات في عهد الرسول ﷺ

الفصل الثاني: معارك إسلامية من عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الثالث : معارك إسلامية غير خريطة العالم

الفصل الرابع : نصر العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ١٩٧٣م

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الغزوات في عهد الرسول ﷺ

(١)

غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان[1]

خلال سنين الإسلام الأولى وقعت ٢٨ غزوة في عهد النبي ﷺ، وحدثت هذه الغزوات خلال ٨ سنوات من سنة ٢ هجرية إلى سنة ٩ هجرية، وتعد غزوة بدر الكبرى أول معركة في الإسلام قامت بين الحق والباطل؛ لذلك سميت يوم الفرقان، ووقعت في رمضان بالسنة الثانية من الهجرة، وكانت البداية حينما خرج المسلمون للقاء قافلة أبو سفيان ولم يكونوا خارجين للقتال، ولكن الله أراد لهم النصرة والعزة للإسلام واستئصال شوكة الكفر.

عندما هاجر الرسول والمسلمون إلى المدينة شرعوا في تكوين دولتهم الوليدة وسط مخاطر كثيرة وتهديدات متواصلة من قوى الكفر والطغيان في قريش التي ألبت العرب كلهم على المسلمين في المدينة، وفي هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الإسلام.

واتبع الرسول ﷺ سياسة حكيمة في القتال تقوم أساسًا على إضعاف القوة الاقتصادية لقريش بالإغارة على القوافل التجارية المتجهة للشام، وبالفعل انطلقت شرارة السرايا بسرية سيف البحر في رمضان ١ هـ بقيادة حمزة بن عبد المطلب وتوالت السرايا والتي اشترك في بعضها الرسول بنفسه، مثل: الأبواء وبواط، حتى كانت غزوة ذي العشيرة عندما جاءت الأخبار للرسول بأن عيرًا لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب قد خرجت إلى الشام فخرج يطلبها ففاتته إلى الشام فرجع المدينة وهو ينتظر عودتها من الشام ليأخذها..

---

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٤ " – عرض / ربيع سكر – ١٢ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع مفكرة الإسلام وموقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني.

وكان الرسول ﷺ يعتمد على سياسة بث العيون وسلاح الاستخبارات لنقل الأخبار بحركة القوافل التجارية وقد نقلت له العيون بأن القافلة راجعة من الشام محملة بثروات هائلة تقدر بألف بعير فندب الرسول الناس للخروج لأخذ هذه القافلة فتكون ضربة قاصمة لقريش ولم يعزم على أحد فاجتمع عنده ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا معظمهم من الأنصار،ويقال: إن هذا العدد هو عدد جند طالوت الذين عبروا معه النهر ولم يشربوا منها لمذكورة قصتهم في سورة البقرة، ولم يكن سوى فارسين الزبير والمقداد والباقي مشا هو كل ثلاثة يتعاقبون على بعير واحد وخرجوا وهم يظنون أنهم لا يلقون حربًا كبيرة وأرسل الرسول رجلين من الصحابة يتجسسان له أخبار القافلة.

الخبر يصل إلى قريش:

كان أبو سفيان قائد القافلة في غاية الذكاء والحيطة والحذر وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان حتى عرف بخروج الرسول والصحابة لأخذ القافلة فاستأجر رجلًا اسمه ضمضم بن عمرو الغفاري وكلفه بالذهاب إلى قريش ليستنفرها لنجدتهم، وفي هذا الوقت كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي قد رأت رؤيا بهذا المعنى وانتشر خبرها في قريش وسخر منها الناس، على رأسهم أبو جهل لعنه الله، ولكن سرعان ما بان تأويل الرؤيا وعرفت قريش بحقيقة الخبر فثاروا جميعًا وأسرعوا للإعداد لحرب المسلمين،وخرج من كل قبائل العرب رجال سوى قبيلة بني عدي حتى بلغ الجيش المكي ألف وثلاثمائة ومعهم مائة فارس وستمائة درع، ولما أجمعوا على المسير خافوا من غدر قبائل بني بكر وكانت بينهما عداوة وحرب، فتبدى لهم إبليس لعنه الله في صورة سراقة بن مالك سيد بني كنانة وقال لهم: "أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه".

العير تفلت:

استخدم أبو سفيان ذكائه وحذره الشديد حتى استطاع أن يعرف موقع جيش المسلمين ببدر ويحول هو خط سير القافلة نحو الساحل غربًا تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار،وبهذا نجا بالقافلة وأرسل رسالة للجيش المكي بهذا المعنى، فهمّ الجيش بالرجوع ولكن فرعون هذه الأمة أبو جهل صدهم عن ذلك، ولكن قبيلة بني زهرة بقيادة الأخنس بن شريق عصوه ورجعوا ولم يشهدوا غزوة بدر.

المجلس الاستشاري:

لم يكن يظن المسلمون أن سير الحرب سيتحول من إغارة على قافلة بحراسة صغيرة إلى صدام مع جيش كبير مسلح يقدر بثلاثة أضعاف جيشهم، فعقد الرسول ﷺ مجلسًا استشاريًّا مع أصحابه ليعرف استعدادهم لمواصلة الحرب المقبلة، وعرض عليهم مستجدات الأمر، وشاورهم في القضية، فقام أبو بكر وعمر والمقداد فتكلموا وأحسنوا، وبينوا أنهم لا يتخلفون عن رسول الله ﷺ أبدًا، ولا يعصون له أمرًا، فأعاد الرسول ﷺ الأمر، وقال: "أشيروا عليّ أيها الناس"..

وكان يريد بذلك الأنصار ليتعرف استعدادهم لذلك، فقال سعد بن معاذ: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله!" قال: "أجل"،قال: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت؛ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًا، وإنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله يريك مناما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله"، فسر الرسول ﷺ بما قاله المهاجرين والأنصار، وقال: "سيرواوأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين".

قبل غزوة بدر:

تحرك الرسول ﷺ واختار مكانًا للقتال أشار الحباب بن المنذر بتعديله ليسهل على المسلمين التحكم في مصدر المياه، وإن كانت هذه الرواية ضعيفة إلا إنها منتشرة بأسانيد كثيرة في كتب السيرة والتاريخ.

الصحابة يأسرون غلامين من جيش قريش، والرسول ﷺ يستجوبهما ليعرف عدد الجيش ومن على رأسه فيتضح أن الجيش قرابة الألف، على رأسه سادة قريش وكبرائها.

أرسل الله مطرًا من عنده، فنزل بردًا وسلامًا وتثبيتًا على المسلمين،ووابلًا ورجزًا على الكافرين، وقد كان الشيطان قد أصاب المسلمين أثناء نومهم، فاحتلم منهم الكثير، فنزل المطر فطهرهم بذلك.

عندما نزل المسلمون في مقرهم اقترح سعد بن معاذ بناء مقر لقيادة النبي ﷺ استعدادًا

للطوارئ؛ فبنى المسلمون عريشًا للنبي ﷺ ودخل معه في العريش لحراسته أبو بكر الصديق لذلك كان علي بن أبي طالب يقول: "أبو بكر أشجع الناس على الإطلاق بعد النبي ﷺ"، وأقام سعد بن معاذ كتيبة لحراسة العريش مقر القيادة.

قضى الرسول ﷺ ليلة في الصلاة والدعاء والتبتل والتضرع لله وقد عبأ جيشه ومشى في أرض المعركة وهو يقول: "هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله غدًا"، وقد استبشر الناس بالنصر.

أما الجيش المكي فقد وقع في صفهم انشقاق بدأ عندما طلبوا من عمير بن وهب الجمحي أن يدور دورة حول المعسكر الإسلامي ليقدر تعداده، فدار دورة واسعة أبعد فيها ليتأكد من عدم وجود كمائن للجيش الإسلامي، ثم عاد فقال لهم: "عددهم ثلاثمائة رجل، ولكني رأيت يا معشر قريش المطايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم؛ فوالله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم".

وهنا دبَّ الرعب في قلوب الكافرين وقامت حركة معارضة بقيادة حكيم بن حزام الذي أقنع عتبة بن ربيعة أن يتحمل دية عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية نخلة رجب ٢هـ، ولكن فرعون الأمة الذي كان يسعى لحتفه بظلفه أفسد هذه المعارضة، وأثار حفائظ عامر بن الحضرمي، فقال: "هذا حليفك، أي عتبة، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك"، فقام عامر وكشف عن استه، وصرخ قائلًا: "واعمراه واعمراه"، فحمي الناس وصعب أمرهم واستوثقوا على ما هم عليه من الشر".

اندلاع غزوة بدر:

كان أول وقود المعركة (غزوة بدر) الأسود بن عبد الأسد المخزومي التي وردت بعض الآثار أنه أول من يأخذ كتابه بشماله يوم القيامة وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ فقتله حمزة بن عبد المطلب قبل أن يشرب منه، ثم خرج ثلاثة من فرسان قريش هم عتبة وولده الوليد وأخوه شيبة وطلبوا المبارزة، فخرج ثلاثة من الأنصار فرفضوهم، وطلبوا مبارزة ثلاثة من المهاجرين، فأمر النبي ﷺ عبيدة بن

الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وكانوا أقرب الناس للنبي ﷺ واستطاع المسلمون قتل الكافرين.

استشاط الكافرون غضبًا لمقتل فرسانهم وقادتهم فهجموا على المسلمين هجمة رجل واحد ودارت رحى حرب طاحنة في أول صدام بين الحق والباطل وبين جند الرحمن بقيادة الرسول ﷺ، وجند الشيطان بقيادة فرعون الأمة أبو جهل، والرسول ﷺ قائم يناشد ربه ويتضرع ويدعو ويبتهل، وقال: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم"،وبالغ الاجتهاد والتضرع حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

أغفى رسول الله إغفاءة واحدة ثم رفع رأسه، فقال: "أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع"، فلقد جاء المدد الإلهي ألف من الملائكة يقودهم جبريل، فخرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب في الدرع ويقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر"، ثم أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشًا، وقال: "شاهت الوجوه!"، ورمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه.

مواقف خالدة:

قام الرسول ﷺ يحرض المسلمين على القتال، فقال لهم: "والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض"، فقال عمير بن الحمام: "لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة"، فرمى بما كان معهمن التمر ثم قاتلهم حتى قُتل رحمه الله.

سأل عوف بن الحارث رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟"، قال الرسول ﷺ: "غمسه يده في العدو حاسرا"،فنزع عوف درعًا كانت عليه، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل.

جاء غلامان صغيران هما معاذ بن عمرو ومعوذ بن عفراء، وظلا طوال القتال يبحثان عن أبي جهل لأنهما أقسما أن يقتلاه؛ لأنه سب رسول الله ﷺ، وبالفعل وصلا إليه حتى قتلاه، وقام ابن مسعود بحز رأسه وحملها للنبي ﷺ الذي قال عندما رآها: "الله أكبر والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، هذا فرعون هذه الأمة".

ضرب الصحابة أروع الأمثلة في الاستعلاء بإيمانهم وعقيدتهم، وبينوا لنا كيف تكون

عقيدة الولاء والبراء، فلقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وقتل عمر بن الخطاب خاله وهمَّ أبو بكر أن يقتل ولده عبد الرحمن، وأخذ أبو عزيز أسيرًا في المعركة، فأمر أخوه مصعب بن عمير بشد وثاقه وطلب فدية عظيمة فيه.

نهاية غزوة بدر:

استمرت المعركة الهائلة والملائكة تقتل وتأسر من المشركين، والمسلمون يضربون أروع الأمثلة في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن دينهم ورسولهم حتى انتهت المعركة بفوز ساحق للمسلمين بسبعين قتيلًا وسبعين أسيرًا، ومصرع قادة الكفر من قريش، ونزل خبر هزيمة المشركين في غزوة بدر كالصاعقة على أهل مكة، حتى إنهم منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون، فحين جاءت البشرى لأهل المدينة فعمتها البهجة والسرور، واهتزت أرجاؤها تهليلًا وتكبيرًا، وكان فتحًا مبينًا ويومًا فرق الله به بين الحق والباطل.

شباب الصحابة كان لهم دور عظيم في غزوة بدر [1]

يقول الباحث الإسلامي علي أحمد علي :الحديث عن بدر وأهل بدر حديث عن التضحية والبطولة والفداء، وغزوة بدر مفخرة من مفاخرنا، وصفحة مشرقة في تاريخنا، ومجد رائع من أمجادنا، وذكراها يذكِّر الأحفاد بروائع الأجداد.

غزوة بدر تذكِّر المسلمين بشدة بأسهم وقوة إيمانهم، وعمق محبتهم لدينهم ونبيهم، كانت غزوة بدر تحولًا في تاريخ الإسلام، وبدءًا لعهد جديد عهد المصاولة والدفاع، عهد التضحية والفداء، عهد مقارعة السيف بالسيف، والذود بالقوة عن مبادئ الإسلام ورسالة الإسلام، قال الشاعر:

من رقة الأصنام والأوثان	كانت على الإسلام بدء تحرر
والسيف فيها ساطع البرهان	الحق فيها بالحقيقة ناطق
حلق الحديد وألسن النيران	لا خير في حق إذا لم يحمه
صانته قوته من العدوان	من لم يصنه من العداوة

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٥ " – عرض / ربيع سكر – ١٤ يوليو ٢٠١٣

كان دور الشباب في غزوة بدر عظيمًا رائعًا يستحق العناية والتسجيل، يقف الإنسان أمام عظمة هذا الشباب وقفة إجلال وإكبار.

عجيب أمر هذا الشباب وقد كشرت لهم الحوادث عن أنيابها، وصبت عليهم قريش نيرانها، فما ضعفوا وما استكانوا.

نحن لا نفضل شباب بدر على شيوخها، فلكل منزلته ودرجته، للشباب جرأتهم وإقدامهم، وللشيوخ نصيحتهم وتربيتهم وحسن توجيههم وترجيح العقل على العاطفة.

كل من اشترك في بدر يستحق الدراسة والتأمل، حسبهم أن الله رفع ذكرهم وغفر ذنبهم، صدقوا الله في اللقاء فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ففاز بخير الدنيا والآخرة، ومنهم من طال به العمر فما غيَّر ولا بدَّل، وصدق الله العظيم إذ يقول: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

في هذه العجالة لا نخص شباب بدر، ولكنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١ - علي بن أبي طالب: كان -ﷺ- سهمًا من سهام الإسلام، وسيفًا مسلولًا من أسيافه، يدوخ الجيوش ويحاصر المدن، ويلقي الرعب في قلوب الأعداء. كان -ﷺ- من الرجال الذين لا تهزهم قواصم المحن، ولا ترهبهم ملاقاة الرجال، ولا يفت في عضدهم السيف، اشترك في جميع المعارك، وكان يخوضها غير هيَّاب ولا وجل.

وفي غزوة بدر كان صاحب راية رسول الله ﷺ..

- بعثه الرسول ﷺ مع الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر، فأتوا بأسيرين قدموهم لرسول الله ﷺ.

- عندما بدأت المعركة خرج عقبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم رجال من الأنصار، فرفضوا قتالهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب.

- وانتصر المسلمون، وتخضبت الأرض بدماء المشركين، فكان أول الغيث، والضربة الأولى نصف المعركة.

٢- عمير بن أبي وقاص: يعجب الإنسان وهو يطالع تاريخ هذا الشباب، كيف استطاعوا أن يحولوا مجرى التاريخ، وأن يسطروا أروع سطوره، ويشيدوا أضخم صرح شيدته الإنسانية قام على الإيمان والتقى!!

هؤلاء الشباب الذين لاقوا السيوف بصدورهم، والنبال بنحورهم، وكان الموت أحب إليهم من الحياة، وهذا شاب أكرمه الله بالشهادة، شاب سما الإيمان في قلبه، فاستهان بالحياة وأقبل على الموت بثغر باسم وصدر منشرح. ولنستمع إلى قصته من أقرب الناس إليه، قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: رأيت أخي عميرًا يتوارى عن الناس، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: أخشى أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني بالشهادة!! فلما رآه الرسول ﷺ استصغره فرده، فبكى، وتوسل إلى رسول الله ﷺ فأجازه. يقول سعد بن أبي وقاص ﷺ: فكنت أعقد له حمائل سيفه لصغر سنِّه، فقاتل وقُتل وسنُّه يومئذ ١٦ سنة.

جدير بشبابنا أن يقف أمام هذه النماذج الرائعة، وأن يقلب صفحات هذا التاريخ المشرق؛ ليأخذ منه العظة والعبرة والقدوة الصالحة، وليرى كيف كان الشباب يفتح البلاد ولم يبلغ العشرين من عمره، ويقود الجيوش وما خطّ له شارب، ويأتي بما يشبه المعجزات وما يزال غض الإهاب.

٣- مصعب بن عمير: شاب في زهرة الشباب وميعة الصبا، عريض الأمل، واسع الرجاء، تجري الحياة في عروقه، يطوي مباهج الحياة، ويغضي عن زهرة الدنيا، ويضرب المثل الكريم للشجاع الأبي، ولا عجب إنها تربية النبوة وغرس الإسلام وشمائل الدين الحنيف.

ولد مصعب بن عمير في بيت من بيوت سراة عبد الدار، وشبَّ بين الترف واللهو، كان أعطر أهل مكة وأجملهم، يفيض تيهًا ودلالًا، يمر بين أحياء مكة فترمقه عيون فتياتها، ويسترعي منظره ساكنيها.

كان -ﷺ- من الرعيل الأول، أسلم والدعوة في مهدها في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فأصابه شظف العيش ولأواء الحياة، وجهد جهدًا شديدًا حتى بدا عليه الضعف والهزال، فلم يضق بالحياة بل تحمل ذلك صابرًا أجمل صبر.

يقول ابن عبد البر في الاستيعاب: كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابًا وجمالًا وتيهًا، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب.

أوذي مصعب، وتبدَّل حاله من نعيم إلى بؤس، ومن غنى إلى فقر، ومن ملبس فاخر وركاب مرفه إلى ثوب مرقوع!!

يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: جئت إلى رسول الله ﷺ فجلستإليه في المسجد وهو مع عصابة من أصحابه، فطلع علينا مصعب بن عمير في بردة مرقوعة بفروة غنم، وكان أنعم غلام بمكة، وأرفههم عيشًا، فلما رآه النبي ﷺ ذكر ما كان فيه من النعم، ورأى حالته التي هو عليها، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى، قال عمر بن الخطاب ﷺ: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه، لقد رأيت ه بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة اشتراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون».

لما جاء وفد المدينة في موسم الحج، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأسلموا، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم من يفقههم في الدين، ويُقرِئهم القرآن، فلم يجد الرسول ﷺ أمامه لهذه المهمة إلا مصعب بن عمير، فكان أول مبعوث لرسول الله ﷺ خارج مكة، وكان مصعب -ﷺ- صالحًا: فأثمرت دعوته، مخلصًا: فالتقى الناس حوله، كان يُسمَّى «المقرئ» و«مصعب الخير»، وتتابعت حياته في صحائف ناصعة في التاريخ الإسلامي، وأُعلن الجهاد فحمل السيف مدافعًا عن دعوه الإسلام، ولكن الحياة لم تطل به، فقد استشهد في أُحد ﷺ.

وجاءت غزوة بدر وكانت خيرًا وبركة على المسلمين، قتل المسلمون فيها من قتلوا، وأسروا من أسروا، وغنموا ما غنموا، وكان في الأسرى عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير وشقيقه، وكان موقف مصعب المؤمن من أخيه المشرك موقف المؤمن الذي لا يعرف إلا الإسلام رابطة.

قيل: إنه كان صاحب اللواء يوم بدر.

قال الطبري: إن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى، فرَّقهم في أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيرًا». قال: وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه

وأمه في الأسارى -وكان الذي أسره يسمى أبا اليسر- قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فنظر إليه أبو عزيز، فقال مصعب لمن أسر أخاه: شد يديك به؛ فإن أمه ذات متاع، لعلها أن تفديه منك.

٤- أبناء عفراء: ربَّى الإسلام الشباب تربية عظيمة، وتعهده بالعناية والرعاية، تعهده منذ نعومة أظفاره، فشبَّ على العزة والكرامة والتضحية، شب في أحضان الإسلام مصونًا من أقذار الجاهلية، نظيفًا من أدران الوثنية.

إن أهل بدر لم يقاتلوا طمعًا في مال، ولا رغبة في جاه، ولا طلبًا للرئاسة، ولا حبًّا للدنيا، إنما عملوا لله وفي سبيل الله، فنصرهم الله {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصر الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

يعجب الإنسان من أمر هذا الشباب فيتساءل: في أي مدرسة درجوا؟ وفي أي معهد درسوا؟ وفي أي جامعة تخرجوا؟

هؤلاء الذين انقضوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة، أو الريح المدمرة، إيمانهم في قلوبهم، يتقدم أحدهم لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أظلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم، أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك به؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضًا مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه. فابتدراه بسيفهما حتى قتلاه! ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل منهما: أنا قتلته. قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا. قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاهما قتله». فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء[٥].

وقال صاحب الفتح: وهما معاذ بن الجموح، ومعاذ بن عفراء. ثم قال: وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه: الحارث. وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسم أمه عفراء، وإنما أطلق عليه تغليبًا.

إن غزوة بدر هزت المشركين واليهود والمنافقين هزًّا عنيفًا: قلبت أوضاعهم، وحطمت قوائمهم، وجعلتهم يراجعون تفكيرهم.

إن غزوة بدر كانت المقدمة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، بل مقدمة لتلك الإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من أقصى بلاد الأندلس غربًا إلى حدود الصين شرقًا.

القيم الحضارية في غزوة بدر[1]

كثيرة هي تلك القيم الحضارية التي ظهرت في غزوة بدر كأحداث رئيسية في هذه المعركة.. تلك المعركة التي لم تكن في حسبان جيش المسلمين الذين خرجوا لمطاردة صفقة تجارية لقريش قادمة من الشام يقودها أبو سفيان بن حرب، كمحاولة جديدة لاسترداد بعض أموال المسلمين التي صادرتها قريش! ولكن قضى الله أمرًا غير الذي أراده المسلمون، فقد استطاع أبو سفيان أن يفلت بالقافلة، بعدما أرسل إلى مكة من يخبر قريشًا بالخبر غير الذي أراده المسلمون، فغضب المشركون في مكة، فتجهزوا سراعًا، وخرجوا في ألف مقاتل.. أما أبو سفيان فقد أرسل إلى قيادات مكة مَن يخبرهم بأن القافلة قد نجت، وأنه لا داعي للقتال، وحينئذٍ رفض أبو جهل إلا المواجهة العسكرية.

دروس وعبر من وقعة بدر :

يقول الكاتب الإسلامي الدكتور ناصر العمر: لقد كانت معركة بدر بداية لعهد انتصارات وفتوحات، حسب للمسلمين بعدها ألف حساب. وما رئي الشيطان أذل ولا أحقر من يوم بدر، وقد سماها الله تعالى في كتابه الكريم (يوم الفرقان). وبمناسبة ذكراها لنا معها هذه الوقفات:

- رمضان هو شهر الجهاد ففيه كانت أولى معارك الإسلام:

- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، والشكر ليس باللسان فقط، بل تحقيق التقوى مهم لتحقيق الشكر. وقد روي أن عمر بن الخطاب ، سأل أبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٦ " – عرض / ربيع سكر – ١٥ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع رابطة العلماء السوريين، وموقع إسلام أون لاين

شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى.

- حرص النبي على الشورى رغم أنه مسدد بالوحي، بل إلحاحه في معرفة رأي كل الأطراف لئلاّ يكرههم على معركة لم يتأهبوا لها

- الكفار خرجوا يريدون القتال، والمسلمون خرجوا يريدون العير، ومع ذلك انتصر الإيمان على العتاد

- النبي كان يستعين بالدعاء في مكة، وكان يستعين به في المدينة، لكن لم ينقل لنا مثل دعائه وإلحاحه وهو متأهب لقتال الكفار يوم بدر، فقد استفرغ وسعه، وأخذ بالأسباب، ودعا رب الأرباب ومسبب الأسباب. وكذلك كان السابقون الصالحون: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٠]، تأهبوا للقتال، وأعدوا العُدَّة، واستعانوا بربهم. ونحن الآن نرى المساجد ترتج بالدعاء للمستضعفين، وقليل من هؤلاء الذين يدعون ويؤمّنون من يسعى لنصرة إخوانه وإعانتهم، فالله المستعان وعليه الجهد والتكلان. المصدر: الدكتور ناصر العمر - موقع المسلم.

وفيما يلي نقف -سريعًا- على بعض القيم الحضارية المستفادة من غزوة بدر كما جاء في دراسة لرابطة العلماء السوريين:

مشاركة القائد جنوده في الصعاب:

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ، قال: فكان إذا جاءت عُقْبَة رسول الله قالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما».

الشورى:

ففي وادي ذَفِرَانَ بلغ النبي نجاة القافلة، وتأكد من حتمية المواجهة العسكرية مع العدو.. فاستشار الناس ووضعهم أمام الوضع الراهن، إما ملاقاة العدو، وإما الهروب إلى المدينة.. فقال لجنوده: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام

الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن.. حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح الحل العسكري.

النهي عن استجلاب المعلومات بالعنف:

وهذا مظهر آخر من المظاهر الحضارية في السيرة، فقد حذر رسولنا من انتزاع المعلومات بالقوة من الناس؛ ففي ليلة معركة بدر بَعَثَ النبي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالب في مفرزة إلى ماء بدر في مهمة استخباراتية لجمع المعلومات، فوجدوا غلامين يستقيان للمشركين، فأَتَوْا بِهِمَا فَسَأَلُوهُمَا، وَرَسُولُ اللهِ يُصَلِّي، فقالا: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ. فطفق الصحابة يضربوهما، حتى اضطر الغلامان لتغيير أقوالهما. فلما أتم رسول الله صلاته، قال لهما مستنكرًا: «والذي نفسي بيده، إنكم لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا.. إذا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا! صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ».

هكذا كانت معاملة القيادة الإسلامية لمن وقع في قبضة المخابرات الإسلامية للاستجواب، فنهى القائد عن تعذيب المستجوَب، أو انتزاع المعلومات منه بالقوة، فسَبَقَ اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩م التي تحظر إجبار الأسير على الإدلاء بمعلومات سوى معلومات تتيح التعرف عليه مثل اسمه وتاريخ ميلاده ورتبته العسكرية، وجرَّم رسول الله كل أعمال التعذيب أو الإيذاء أو الضغط النفسي والجسدي التي تمارس على الأسير ليفصح عن معلومات حربية.

وثمة تقدم إسلامي على هذه الاتفاقات الأخيرة، فرسول الله قد طبق هذه التعاليم التي تحترم حقوق الأسير، بيد أن دول الغرب في العصر الحديث لم تُعِرْ اهتمامًا لهذه الاتفاقات ولم تحترمها، والدليل على ذلك ما يفعله الجنود الأمريكيون في الشعب العراقي والأفغاني.. وما يفعله الصهاينة في الشعب الفلسطيني.

احترام آراء الجنود:

لما تحرك رسول الله إلى موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الحُبَاب بن المُنْذِر، وأشار على النبي بموقع آخر أفضل من هذا الموقع، وهو عند أقرب ماء من العدو، فقال له رسول الله -مشجعًا-: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ». وبادر النبي بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء!

العدل بين القائد والجندي:

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بين القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده ليقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَاد بن غَزِيّة، لما اسْتُنْزِل من الصف، غمزه النبي غمزة خفيفة في بَطْنِهِ -بالسهم الذي لا نصل له- وقال: «استوِ يا سواد». قال: يا رسول الله، أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي. فكشف رسول الله عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: «اسْتَقِدْ». فَاعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَ بَطْنَهُ! فقال النبي: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سواد؟» قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير.

الحوار قبل الصدام:

أراد النبي أن يستنفد كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أُرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتُحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نَزَلَ الجيش الوثني أرض بدر أَرْسَلَ رسولُ الله عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ إلى قُرَيْشٍ، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنًا للدماء.. فتلقفها حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عَرَضَ نِصْفًا، فَاقْبَلُوهُ، والله لا تُنْصرونَ عليه بعد ما عرض من النِّصْفِ. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم.

الوفاء مع المشركين:

فقد قال النَّبِي في أُسَارَى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»!!

وذلك لأن المطعم قد أدخل النبي في جواره فور رجوعه من الطائف إلى مكة، وفي الوقت الذي تخلى فيه الناس عن حماية النبي خوفًا من بطش أبي جهل، قال المطعم: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم.. وقد حفظ النبي للمطعم هذا الصنيع وهذه الشهامة.

وقال النبي في هذا اليوم أيضًا: «مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ فَلا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلا يَقْتُلْهُ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا».

وقد كان العباس في مكة بمنزلة قلم المخابرات للدولة الإسلامية، وقد كان مسلمًا يكتم إيمانه.. أما أبو الْبَخْتَرِي فقد كان أكف المشركين عن المسلمين، بل ساند المسلمين في محنتهم أيام اعتقالهم في الشِّعب، وكان ممن سعى في نقض صحيفة المقاطعة الظالمة، ومن ثَمَّ كانت له يدٌ على المسلمين، فأرد النبي يوم بدر أن يكرمه.

فالقيادة الإسلامية تحفظ الجميل لأصحاب الشهامة، وإن كانوا من فسطاط المشركين.

حفظ العهود:

قال حذيفة بن اليمان: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا. فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة. فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لنصيرن إلى المدينة ولا نقاتلوا مع محمد ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فيما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»!!

وهذا الموقف من رسول الله يعدُّ من مفاخر أخلاقيات الحروب في تاريخ الإنسانية، فلم ير المؤرخون في تاريخ الحروب قاطبة موقفًا يُنَاظر هذا الموقف الباهر، ذلك الموقف الذي نرى فيه القيادة الإسلامية تحترم العهود والعقود لأقصى درجة، حتى العهود التي أخذها المشركون على ضعفاء المسلمين أيام الاضطهاد، برغم ما يعلو هذه العقود من شبه الإكراه.

إكرام الأسرى:

بعدما أكرم الله الجيش الإسلامي بالنصر، واستوثق المسلمون من الأسرى، فرَّقهم النبي بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيرًا».

وهذا أبو عزيز بن عمير -أخو مصعب- يحدثنا عما رأى حين أسره المسلمون. قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَّمُوا غداءهم وعشاءهم خَصُّوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله إيَّاهُمْ بِنَا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نَفَحَنِي بِهَا. فَأَسْتَحْيِي فَأَرُدّهَا على أحدهم، فَيَرُدّهَا عَلَيَّ ما يَمَسّهَا.

وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

النهي عن المثلة بالأسير:

لما أُسر سُهيل بن عمرو أحد صناديد مكة فيمن أُسر، قال عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِرَسُولِ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَنْزِعْ ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو، وَيَدْلَعُ لِسَانَهُ فلا يقوم عليك خطيبًا فِي موطن أبدًا! وقد كان خطيبًا مفوهًا، يهجو الإسلام. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -في سماحةٍ وسمو-: «لا أُمَثِّلُ بِهِ، فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا»[١٣]! فلم يمثل به كما يمثل الهمجيون في قتلى وأسرى الجيش المهزوم، وسنَّ بذلك سنة حسنة في الحروب، ويبقى له الفضل والسبق في تحريم إهانة الأسرى أو إيذائهم. هكذا كان نبي الرحمة في ميدان القتال، يشارك جنوده، ويستشيرهم، ويعدل بينهم، ويحترم آراءهم، ويحاور أعداءه، ويكون وفيًّا كريمًا لأهل الفضل منهم، ويكرم الأسرى، وينهى عن إيذائهم.

❖❖❖

(٢)

غزوة أحد[1]

كانت غزوة أحد غزوة عظيمة في أحداثها ومجرياتها، عجيبة في آياتها ومعجزاتها، شديدة في ضرائها وابتلاءاتها، غزيرة في عبرها ودروسها. ويقول الباحث الإسلامي إبراهيم بن محمد الحقيل: وقعت غزوة احد في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، بعد عام واحد من غزوة بدر التي غَشِيَ المشركين فيها ما غشيهم من هزيمة جيشهم، وقَتْل سادتهم، وذهاب هيبتهم؛ فأجْمَعُوا أمرهم، وجمعوا حلفاءهم، وأعدوا عُدَّتهم، وعزموا على غزو المسلمين في المدينة، والثأر لما أصابهم في غزوة بدر الكبرى؛ فجرت أحداث عظام في هذه الغزوة المباركة، وظهر صدق الإيمان والتضحية والفداء، وابْتُلِيَ المسلمون ابتلاءً عظيمًا؛ حتى رأوا رسول الله ﷺ قد وصل إليه المشركون، ونالوا منه، وكانت الصاعقة الكبرى ما أشيع من قتله عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى حَفِظَ نَبِيَّه ﷺ وثبّت قلوب المؤمنين، وتلك من أعظم النعم، وأكبر الآيات والمعجزات التي زخرت بها هذه الغزوة!

لقد أكرم الله تعالى الطائفة المؤمنة في غزوة أحد بآيات عظيمة، وخصَّ نبيه ﷺ بمعجزات باهرة، كانَتْ مُعِينًا للمؤمنين على ثباتهم رغم هزيمتهم، ومقوية لهم في مِحْنَتِهم رغم قلتهم وكثرة عدوهم، ولمّا اشتد الكرب على المؤمنين، وقوِيَ كَلَبُ الكافرين، وتمكنوا من رِقَاب المُؤْمِنين، وعظم خوف الصحابة – رضي الله عنهم – من نتائج هذه الغزوة، ودَبَّتِ الفوضى في أوساطهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وعلاهم من الغمّ ما علاهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو النوم الخفيف؛ لينسيهم غمّهم، ويزيل تعبهم، ويجدّد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى لهم، وسكينة عليهم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة "٧" – عرض/ ربيع سكر – ١٦ يوليو ٢٠١٣ – نقلا عن موقع شبكة الألوكة.

قال الزبير بن العوام -رضي الله عنه-: «لقد رأيت في مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره...».

وقال أبو طلحة الأنصاري -رضي الله عنه-: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»؛ رواه البخاري.

وفي رِوَاية قال أبو طلحة: «رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ من أحد إلا يميد تحت جحفته من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ [آل عمران: ١٥٤]».

كان من آيات الله تعالى في هذه الغزوة، وإكرامه لعباده المؤمنين؛ استجابته تبارك تعالى لدعاء بعضهم، وإعطاءهم ما سألوا؛ كما روى سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-: «أنّ عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا نَدْعُو الله، فَخَلَوَا في ناحية، فدعا سعد فقال: «يا ربّ إذا لقيت العدو، فلقّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حَرَدُه -أي غضبه- أقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال: «اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: «يا عبدي، فيم جُدِع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت»، قال سعد: «يا بني، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقان في خيط»؛ رواه الحاكم، وقال الذهبي: «صحيح مرسل».

ولما دعا أحد المشركين على نفسه بالسوء استجاب الله دعاءه، فأصابه العذاب كما روى بريدة -رضي الله عنه-: «أنّ رجلًا قال يوم أحد: اللهم إن كان محمدًا على الحق فاخسف بي، قال: فخسف به»؛ رواه البزّار.

ومن الآيات العظيمة في غزوة أحد: أنّ الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي ﷺ كما روى الشيخان من حديث سعد -رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدّ القتال، ما رأيت هما قبل ولا بعد».

وقد ذكر العلماء أنّ الملائكة كانوا لحراسة النبي ﷺ، وأنّ الله تعالى قد وعد المؤمنين بأنهم

إنْ صبروا واتقوا أمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوَّمين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مصافّهم، وترك الرماة عهد رسول الله ﷺ ألا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة، فصدقهم الله وعده، وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء، وبقي من بقي من الملائكة للدفع عن النبي ﷺ وحفظه من العدو.

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنّهم غسلوا من كان جُنُبًا من الصحابة -رضي الله عنهم- فقد قال النبي ﷺ في شأن حنظلة ابن أبي عامر: «إنّ صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته»، فقالت: «إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنُب»، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»؛ رواه الحاكم.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «أُصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنب فقال رسول الله ﷺ: «رأيت الملائكة تغسلهما»»، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وأظلّت الملائكة عبد الله بن حرام -رضي الله عنه-، كما روى ابنه جابر -رضي الله عنه- قال: «لمّا قُتِل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهوني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمّتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتى رفعتموه»، رواه الشيخان.

وكان -رضي الله عنه- حريصًا على الشهادة، طالبًا لها، صادقًا في طلبه إيّاها، قال جابر: «لمّا حضر أحدٌ دعاني أبي من الليل فقال: «ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ وإنّي لا أترك بعدي أعز عليَّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ وإنّ عليَّ دينًا فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثمّ لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هُنَيَّةً غير أذنه»؛ رواه البُخَارِيّ.

وقد أكرمه الله تعالى بكرامة عظيمة، قال جابر -رضي الله عنه-: «قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، مالي أراك منكسرا؟» قال: «قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا وديْنًا»، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» فقال: «بلى يا رسول الله». قال: «ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا، فقال: «يا عبدي، تمن عليَّ أعطك». قال: «يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية»، فقال الرب سبحانه: «إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون»،

قال: «يا رب، فأبلغ من ورائي»، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]»؛ رواه الترمذي وابن ماجه.

ومن أعظم الآيات في هذه الغزوة: مصير قتلى الصحابة -رضي الله عنهم-، فقد روى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عزَّ وجلَّ أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طِيْبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: «من يُبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب»، فقال الله عزّ وجلَّ: «أنا أبلغهم عنكم؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾»؛ أخرجه أحمد، وأبو داود بإسناد صحيح.

أيها الإخوة: كانت تلك بعض الآيات والكرامات التي منَّ الله تعالى بها على المؤمنين في هذه الغزوة العظيمة، وآياتها عظيمة، وكراماتها كثيرة، وما لا نعلمه منها أكثر وأكثر، ورغم مُصاب المُسلمين فيها فإنّ فيها خيرًا عظيمًا، لهم بما ناله الشهداء منهم من الدرجات، والمنازل العالية عند ربهم، وبما استفاده الأحياء منهم من الدروس والعبر، وفي مقدمة ذلك: التزام الطاعة، والبعد عن المعصية التي كانت من أهم أسباب الهزيمة.

أيها المؤمنون: من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يجعل المِحَن والابتلاءات فرصة لمراجعة أنفسهم، وتصحيح أخطائهم، وتجديد العهد مع ربهم؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة.

ولقد كانت معصية الرماة سببًا للهزيمة في أحد؛ إذ أمرهم النبي ﷺ بعدم مبارحة أماكنهم مهما كان الأمر، فتركوا مواقعهم، ورأوا أن النصر تحقق، واشتغلوا بجمع الغنائم؛ فجاءهم عدوهم من حيث لم يحتسبوا، وانقلب ميزان المعركة، وتحول النصر إلى هزيمة؛ ليعلم المسلمون خطورة المعصية، وخطورة الأثرة بالرأي والفعل.

وعزا الله تعالى هذه المصيبة التي أصابتهم إلى أنفسهم؛ لأنها كانت بسبب ما كسبوا من العصيان الذي هو أكبر سبب للهزيمة في المعارك فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

﴿مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ١٦٥].

فهو سبحانه وتعالى كان قادرًا على نصرهم، بدليل إنزاله الملائكة معهم للقتال، وبدليل نصرهم على المشركين في بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ولكن طائفة منهم هي طائفة الرماة -رضي الله عنهم- غيّروا وبدّلوا، وعصوا أميرهم الذي ثبت في نفر قليل، وكان ينهاهم عن ترك مواقعهم، فزال بمعصية الرماة سبب من أسباب تنزل نصر الله تعالى وهو الطاعة، وحلّت محله المعصية، فتخلف النصر، وأحجم الملائكة عن القتال مع المؤمنين بسبب هذه المعصية، فكانت الهزيمة.

فإذا كان النصر قد تخلّف في غزوة أحد بسبب معصية واحدة؛ فهل يستحق المسلمون النصر على أعدائهم وتأييد الله تعالى لهم وفيهم من العُصاة ألوف بل ملايين، وفيهم من أنواع المعاصي والموبقات ما لا يعلمه إلا الله تعالى؟! معاصٍ في البيوت والأسواق، معاصٍ في الرجال والنساء، معاصٍ في الشيب والشباب، معاصٍ في الإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد، وفي كثير من شئونهم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، ولن يحابي أحدًا من خلقه مهما عظمت منزلته، فعدله -وهو العدل تبارك وتعالى- يأبى ذلك، وقد جعل في الكون سننًا لا تحابي أحدًا من الناس، وقوانين لا تجامل كائنًا من كان، ومن هذه السنن: أنّ المستحق لنصر الله تعالى هو من يقيم دينه، وينصر شريعته، ويلتزم طاعته؛ ويباعد عن معصيته، فمن حقق ذلك نصره الله تعالى سواء كان شريفًا أم وضيعًا، قريبًا كان أم بعيدًا، وسواء كان جيشه كثيرًا أم قليلًا.

وكم تحتاج الأمة المُسْلِمَة في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليها الأهوال والمحن، واجتمع الشر كله من كفار ومنافقين؛ لإنهاء حياتها بإقصاء دينها، وفرض الكفر والنفاق عليها، تحتاج إلى صدق التوجه إلى الله تعالى وترك المعاصي والمحرمات، والاجتهاد في الطاعات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى حتى لا نكون نحن

سببًا في تخلف نصر الله تعالى عن الأمة المسلمة، فمن نصر دين الله تعالى استحق النصر العظيم، والفتح المبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

وإن اختار المسلمون طريقًا غير ذلك، فبقوا على عصيانهم، وتخلّفوا عن طاعة ربهم؛ فإن العاقبة ستكون أليمة، والمصيبة عظيمة، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

فانصروا الله بإقامة دينه، والتزام طاعته، والبعد عن معصيته؛ ينصركم على أعدائكم، أصلحوا بيوتكم وأولادكم، وانشروا الصلاح فيما بينكم فإنكم إن حققتم ذلك نصرتم على عدوكم، وإن حققه بعضكم، وتخلّف الآخرون؛ فقد برئت ذمة الذين أصلحوا أنفسهم، ولن يعذبهم الله في الآخرة بذنوب غيرهم. المصدر: شبكة الألوكة.

(٣)

غزوة بني قينقاع ..[1]

غزوة بني قينقاع وقعت في العام ٢ هجرية . ونشير أولا بصورة إجمالية إلى نقض اليهود في المدينة للعهود مع الرسول ﷺ وهو ما ادى إلى وقوع عدد من الغزوات منها بني قينقاع وبني النضير و بني المصطلق و بني قريظة وخيبر .

الرسول واليهود:

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : كان في داخل المدينة المنورة ثلاث قبائل لليهود: قبيلة بني قينقاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة؛ وفي شمال المدينة المنورة يقع تجمع ضخم لليهود هو تجمع خيبر.

وقد أقام رسول الله معاهدة مع اليهود، وقد حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يخالفوا هذه المعاهدات، وأن ينقضوا الميثاق، وتحدثوا كثيرًا بالسوء، ليس فقط عن الصحابة، وليس فقط عن رسول الله ، بل عن ربِّ العالمين ، وتطاولوا كثيرًا في هذه الكلمات، لكن الرسول كان يضبط النفس، ويتحكم قدر المستطاع في أن يمنع الصحابة من الصدام المباشر مع اليهود؛ لأن الوضع في المدينة المنورة لم يكن مستقرًّا.

ولم يختلف اليهود كثيرًا عن المشركين، فبعد أن عاهدهم رسول الله ﷺ ووفَّى بعهدهم، وأحسن معاملتهم، ما كان منهم إلا الإساءة، ونكران الجميل، والتقوُّل على الله ورسوله وعلى المؤمنين، ومحاولة تشكيك المسلمين فيما يعتقدونه من الحق، وقد صبر عليهم رسول الله ﷺ كثيرًا، وتغاضى عن الكثير من أخطائهم، ولم يعاقبهم عليها رغم فداحتها، إلا أن الأمر بلغ حدًّا لا يُطاق، وأصبح من الحكمة بمكان أن يتمَّ اتخاذ موقفٍ حازمٍ إزاء ما يفعله اليهود

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٨ " – عرض / ربيع سكر – ١٧ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام – دراسة للدكتور راغب السرجاني

غدر بني قينقاع:

بعد انتصار الرسول والمسلمين في بدر، رجع وهو يرفع رأسه بعزة وقوة وبأس، ومما لا شك فيه أن ذلك أرهب معظم الجزيرة العربية، لكن ردّ فعل اليهود كان غريبًا.

وعندما دخل الرسول المدينة، جمع يهود بني قينقاع وحذَّرهم من مغبَّة الطغيان والمخالفة المستمرة التي كانوا عليها، وقال لهم: «يَا مَعْشر يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». وهو بذلك لا يكرههم على الإسلام أو على الإيمان، لكنه يوضح لهم أن قريشًا لما ظاهرت على أمر الله أذلّها الله. وهذا الأمر له بوادر كثيرة عند اليهود، فهم -دائمًا- يخالفون ويسيئون الأدب مع الأنبياء، بل ومع رب العالمين.

لكنّ ردَّ فعل بني قينقاع كان عنيفًا للغاية؛ ففي سنن أبي داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشر يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا».

فلما قال يهود بني قينقاع هذا الكلام، أَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ آيات بينات توضح العلاقة بين المسلمين واليهود خلال الفترة القادمة، قال الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

ولأن بصائر اليهود مطموسة تمامًا، لم يفقهوا هذه الآيات ولم يهتموا بها، فكان هذا هو الموقف بين اليهود والمسلمين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تصاعد الأمر.

وحدث ان امرأة من المسلمين قدمت إلى سوق بني قينقاع، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود تبيع وتشتري منه، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها، ورفضت المرأة المسلمة ذلك، فجاء أحد اليهود من خلفها وربط طرف ثوبها برأسها دون أن تشعر، وعندما وقفت انكشفت المرأة فصرخت، فجاء أحد المسلمين وقتل اليهوديَّ الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت هذه بوادر أزمة ضخمة في داخل المدينة المنورة، فقد اجتمعت قبيلة بني قينقاع على قتل المسلم، بعد أن قاموا بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة.

دولة كاملة تتحرك لأجل امرأة واحدة:

وصل الأمر إلى رسول الله ، وعلى الفور جمع الصحابة وجهّز جيشًا، وانتقل سريعًا إلى حصون بني قينقاع، وحاصر الحصون وفي داخلها بنو قينقاع، وأصر على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره . وقد حرَّك رسول الله هذا الجيش بكامله من أجل أن امرأة واحدة كُشفت عورتها، وما يؤلمني كثيرًا ليس فقط ما أرى من كشف عورات المسلمات في بقاع الأرض وفي أماكن كثيرة من العالم، ولكن تنتهك الحرمات إلى درجات القتل، وإلى درجة الاعتداء على المرأة، وأمور يستحي الإنسان من ذكرها، يحدث هذا كله ولا تتحرّك جيوش المسلمين.

ونلاحظ في موقف النبي مدى عزة وكرامة الدولة الإسلامية، فقد حدث نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود، فأخذ النبي الأمر بمنتهى الجدّية، وانتقل بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال سقوط دماء كثيرة؛ نتيجة القتال مع بني قينقاع وهم من أصحاب السلاح والقلاع والحصون والبأس الشديد في الحرب، وقد رأى رسول الله أن كل هذا ثمن رخيص للغاية في مقابل حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

وبدأ الحصار في يوم السبت في نصف شوال سنة ٢هـ بعد أقل من شهر من غزوة بدر الكبرى، وظل محاصرا لبني قينقاع أسبوعين كاملين، إلى أن ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله الرعب في قلوب اليهود، فنزلوا على حكم الرسول ، وكان حكمه في ذلك الوقت هو قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، ليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة، ولا لقتل المسلم، لكنها تراكمات طويلة جدًا، فهم منذ أن دخل الرسول وهم في مخالفات مستمرة، وسبّ علنيّ لله ولرسوله الكريم ، وللصحابة وإثارة الفتن بين المسلمين، فكان لا بد من وقفة معهم.

فإذا أردنا أن نتأسّى به في عَلاقاتنا مع المشركين أو مع اليهود أو مع أعداء الأمة بصفة عامة، فعلينا أن ندرس جيدًا الموقف الذي أخذ فيه الرسول القرار، أيًا كان هذا القرار.

النفاق يتعانق مع اليهود:

نزل اليهود على حكم رسول الله ، وخرجوا من حصونهم، وكان القرار هو قتل بني قينقاع. وهنا جاء عبد الله بن أُبي بن سلول، ولم يكن قد أسلم إلا منذ أيام قليلة، فهو لم

يسلم إلا بعد بدر، وكان حليفًا لبني قينقاع، وطلب من الرسول أن يحسن في مواليه بني قينقاع، ورفض رسول الله ذلك؛ لأن ما فعلوه إنما هو جريمة عسكرية كبرى، وفتنة كبيرة تحدث في المدينة، وقد أخذ الرسول القرار، فكرَّر ابنُ أُبيّ ما يريد مرة وثانية وثالثة، ثم أدخل يده في جيب درع رسول الله ، فقال له الرسول : «أَرْسِلْنِي». وغضب غضبًا شديدًا، وقال له: «وَيْحَكَ! أَرْسِلْنِي». لكن هذا المنافق أصر على إمساك الرسول ، وقال له: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر».

قال ابن أُبيّ هذا الكلام هكذا بمنتهى الصراحة، فقد كان هذا المنافق حليفًا لبني قينقاع، وكان لهم جيشٌ قوامه سبعمائة رجل؛ أربعمائة حاسر (أيْ: من غير دروع)، وثلاثمائة دارع، وهؤلاء السبعمائة قد منعوه -كما يقول- من الأحمر والأسود. فهذه -إذن- هي القوة الأساسية المساعدة لعبد الله بن أُبيّ زعيم الخزرج قبل أن يأتي الرسول ، وهذه القوة تمنعه من كل الناس، ورسول الله قد قرر أن يقتلهم جميعًا في لحظة واحدة. ويقول المنافق: وربما تدور الدوائر على المدينة بعد ذلك فلا أجد من يحميني. فهو لم يفكر في الرسول ، ولم يفكر في الجيش الإسلامي، ولم يفكر في انتمائه، وإنما كان تفكيره في عقائده الجاهلية التي كان عليها، وكانت علاقته باليهود أشد توثيقًا من علاقته برسول الله، ومع ذلك كان يعذره رسول الله ؛ لأنه كان ما زال حديث الإسلام، وكان النبي يؤمِّل كثيرًا فيه، وخاصةً أن خلفه مجموعة كبيرة من الناس، فعامله بالحسنى في هذا الموقف، وقَبِل منه أن يفتدي هؤلاء، ولكن النبي اشترط أن يترك اليهود من بني قينقاع المدينة المنورة بكاملهم، وقَبِلَ اليهود بذلك، وخرجوا من المدينة المنورة إلى منطقة تسمى (أذرعات) بالشام، ويقال: إنهم قد هلكوا هناك بعد فترة وجيزة. وبهذا انتهت قصة بني قينقاع من المدينة المنورة.

وقفات مع جلاء بني قينقاع:

اختيار التوقيت المناسب للقرار:

لم يقف رسول الله هذه الوقفة الجادة والقوية مع اليهود، إلا بعد أن اطمأنَّ تمامًا على قوة المسلمين اقتصاديًا وعسكريًا، فقد أصبح السوق الإسلامي موجودًا وقويًا، بينما كانت التجارة في السابق في سوق بني قينقاع. وأصبح الماء -أيضًا- ملكًا للمسلمين، وقد كان في السابق لليهود، ونعرف جميعًا قصة بئر رومة. والجيش المسلم يعتمد اعتمادًا كُلِّيًا على

أفراده، لا يعتمد على معونات خارجية، ولا على أيِّ مساعدات من خارج المهاجرين والأنصار، بينما كان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يعتمد على اليهود في حمايته. وكان هذا الوضع مؤهِّلًا لرسول الله أن يأخذ قرار الحرب بسهولة.

ولم يتساهل الرسول مطلقًا مع اليهود بعد موقفهم مع المرأة المسلمة، ومع الرجل المسلم الذي قُتل، وكان ما فعله اليهود مخالفة صريحة للمعاهدة المبرمة بينهم وبين رسول الله، ولو سكت الرسول على مخالفة اليهود للمعاهدة المرة تلو الأخرى؛ فإن اليهود من دون شك سيزيدون من تطاولهم، ويدخلون في مرحلة أخرى من الاستهزاء بالدولة الإسلامية وكرامة الأمة الإسلامية.

اليهود بين الأمس واليوم:

من طبائع اليهود الثابتة التي لا ينفكون عنها بحال من الأحوال؛ التطاول الدائم واتخاذ المواقف المعادية كلما زاد سكوت المسلمين عن مخالفاتهم، وقد رأينا هذا في اليهود قديمًا وحديثًا، وسنظل نراه منهم إلى يوم القيامة.

رأينا في العصر الحديث عندما خالف اليهود القوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين مع أن هذا الأمر كان ممنوعًا عليهم، ولكن لأن المسلمين سكتوا عن هذا الأمر، تملّك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخل فلسطين كلها، ومع سكوت المسلمين استقدم اليهود السلاح الخفيف إلى داخل فلسطين، ثم استقدموا السلاح الثقيل، ومع استمرار سكوت المسلمين جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والمسلمين، ثُمَّ إقامة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وحرب ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٨٢م في لبنان. وهكذا كلما سكت المسلمون أخذ اليهود جزءًا أكبر.

كنا في الماضي نطالب بالعودة إلى حدود التقسيم، ثم بعد ذلك نطالب بالعودة إلى حدود ٦٧، ثم نطالب بالعودة إلى حدود الانتفاضة، وإذا كان اليهود اليوم يقيمون جدارًا عازلًا، فإننا ربما نطالب في المستقبل بالعودة إلى حدود الجدار العازل.

فهذا التساهل مع اليهود هو الذي أدَّى إلى ما آلت إليه أحوالنا اليوم.

وقد تجنَّب الرسول كل هذه المآساة، وأخذ قرارًا سريعًا وحاسمًا بحصار بني قينقاع، ومعاقبتهم بالطريقة التي شرعت في المعاهدة التي بينه وبينهم قبل ذلك بسنتين.

(٤)
غزوة بني النضير[1]

غزوة بني النضير وقعت في شهر ربيع الأول من العام ٤ هجرية . وعن وقائع الأحداث التي أدت إلى وقوع غزوة بني النضير ، قال المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : أخذ الرسول ﷺ مجموعة من الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وطائفة من الصحابة، وذهبوا يطلبون من بني النضير أن يساعدوهم في دفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري - ﷺ- عن طريق الخطأ؛ لعهد الأمان الذي كان الرسول ﷺأعطاهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عهدٌ وحلف، فلما أتاهم ﷺ، قالوا: "نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت".

واتفق اليهود على قتل الرسول ﷺ قائد الدولة الإسلامية، وهو بين أيديهم ومن السهل أن يتخلصوا منه، والمسلمون في أزمة، فهم يرون المسلمين وقد أصابهم عدة مصائب، منها مأساة بئر معونة والرجيع، وفي فعلتهم هذه مخالفة صريحة للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ.

قالوا: "فمن يعلو على هذا البيت؛ فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟" فانتدب لذلك عمرو بن جِحَاش، فقال: "أنا لذلك". فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، والرسول ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ جميعًا، فأتى رسول الله ﷺالخبر من السماء بما أراد القوم؛ فقام وخرج راجعًا إلى المدينة حتى لا يلفت الأنظار إليه. فلما رآه الصحابة يسير نحو المدينة قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مُقبِلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيت ه داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كان اليهود يريدون من الغدر به، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمر بني النضير بالخروج من جواره وبلده، ولا يساكنوه، وقد أجَّلهم عشرة أيام، فمن وجده بعد ذلك

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٩ " – عرض / ربيع سكر – ١٨ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام – دراسة للدكتور راغب السرجاني وموقع شبكة الألوكة.

ضرب عنقه. فبعث إليهم أهل النفاق بقيادة عبد الله بن أُبيّ بن سلول يحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر.

الموقف صعب للغاية، ولكن لا بد من المواجهة مع بني النضير مهما تكن النتائج. ويعد بني النضير هناك لقاء بين المسلمين وقريش عند بدر في شوال ٤هـ.

حصار بني النضير:

فلما أرسل المنافقون إلى اليهود قويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حُيَيّ بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهد، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم، وأمر بالتهيؤ لحربهم، والمسير إليهم؛ لتأديبهم جزاء غدرهم وحقدهم، فحاصرهم المسلمون ست ليال، وفي رواية خمس عشرة ليلة، ولكن الأصح أنه ست ليال، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول، وانسحب المنافقون ولم ينصروا اليهود، وتركوهم يواجهون المصير المحتوم، وتحصنوا في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وحرقها، فنادوه: "أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها".

وقذف الله في قلوبهم الرعب، فقد نصر الله عز وجل المسلمين في ذلك اليوم بالرعب، فهو جندٌ من جنود الله، فسأل يهود بني النضير رسولَ الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. ولم يؤمن من اليهود من قبيلة بني النضير إلا يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب، من هذه القبيلة الكبيرة لم يؤمن إلا رجلان فقط! فحقًا هؤلاء هم اليهود، وصدق قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وهذا هو عداؤهم للإسلام، وخرج اليهود من المدينة إلى خيبر في شمال الجزيرة العربية، وخرج المسلمون من حصار بني النضير أكثر قوة، وارتفعت مكانتهم في شبه جزيرة العرب.

استعادة المسلمين لهيبتهم في الجزيرة :

بعد إخراج بني النضير من المدينة بعث الرسول ﷺ السرايا إلى بعض جهات الجزيرة،

وخرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس جيش لتأديب أهل نجد الذين أوقعوا بالمسلمين في بئر معونة وماء الرجيع، وسبحان الله! لقد فرَّ أهل نجد من أمام جيش المسلمين، وعندما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة بدأ يُعِدّ العُدَّة للخروج للقاء قريش عند ماء بدر، حسب الاتفاق السابق مع المشركين، فقد اتفقوا مع أبي سفيان على هذا الموعد.

لقاء أبي سفيان والذهاب لدومة الجندل:

وخرج رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، وذلك في شهر شعبان ليعاد أبي سفيان، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجي ﷺ، وحمل اللواء علي بن أبي طالب ﷺ.

وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان، ومعهم خمسون فرسًا حتى نزل موضعًا قريبًا من مَرِّ الظَّهْران، ثم بدا له الرجوع، فقال: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جَدْبٍ، وإني راجع فارجعوا". فرجع، ورجع الناس، فسمَّاهم أهل مكة جيش السَّوِيق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السَّوِيق.

هذه حيلة دبرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حربًا، بل خرج لئلاّ يقال أخلف وعده، ولم يعارضه أحد من قريش في الرجوع، فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب، وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة رجلًا اسمه نُعَيم؛ ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو، ويحملهم على عدم الخروج؛ وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يبالِ بما سمع من كثرة عدد الجيش، وعلم ما يريده المشركون من تثبيط همة الناس، فقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ لَخَرَجْتُ وَحْدِي".

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ليثبت للجميع أن المسلمين لا يخافون من قريش أو أي قوة أخرى تريد الوقوف أمام المسلمين، وفي هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا كثيرًا، وسمع الرسول ﷺ أن بعض القبائل في دومة الجندل تُغِير على المسلمين وتقتل منهم، فقرر ﷺ الذهاب إلى دومة الجندل، والمسافة بين المدينة ودومة الجندل أكثر من أربعمائة وخمسين كيلو مترًا. وهناك قام الرسول ﷺ بتفريق مجموعات من الصحابة رضوان الله عليهم لتأديب هذه القبائل، ومع أنه ﷺ لم يلق كيدًا، ولم يدخل في

قتال مع القبائل، إلا أن الذهاب إلى دُومة الجَنْدل وفرار القبائل يُعَدّ انتصارًا للمسلمين دَوِّي في الجزيرة؛ وبذلك عادت الهيبة إلى المسلمين في الجزيرة العربية كلها، وثبتت دعائم الدولة الإسلامية مرة أخرى، وسمع الناس بالجيوش الإسلامية التي تتحرك هنا وهناك، تُعاقب من يتعدى عليها أو ينقض العهد معها.

دروس وعبر من غزوة بني النضير:

ويقول الباحث الإسلامي مراد باخريصة : بعد أن ذكر الله -سبحانه وتعالى- في سورة الحشر الأحداث التي حدثت في غزوة بني النضير، قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

فهو أمر منه سبحانه وتعالى بأخذ الدروس والعبر من غزوة بني النضير، ومن أعظم العبر فيها إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على تغيير الأحوال وتبديل الحال وتصريف الأمور كيف يشاء سبحانه وتعالى، فلا يقف أمام قوته وقدرته شيء، فهؤلاء اليهود كان الناس جميعًا حتى المسلمون يظنون أن قوتهم وحصونهم التي يتحصنون بداخلها لن يستطيع أحد أن يخترقها أو يخرجهم منها {مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا}؛ أي أنتم أيها المسلمون مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، {وَظَنُّوا} أي اليهود أن حصونهم مانعتهم من الله، ولكن الله جل جلاله أتاهم من حيث لم يحسبوا، فسلَّط عليهم جنديًّا من جنوده وهو الرعب، فانهارت معنوياتهم وضعفت نفسياتهم، فاستسلموا وخربوا بيوتهم بأيديهم.

فعلى الناس أن يعلموا أن الله الذي أجلى هؤلاء وأزالهم بعد أن ظنَّ الناس أن حصونهم مانعتهم - قادرٌ على أن يزيل غيرهم من الكافرين والمتكبرين والظالمين بشرط أن يصلح الناس أحوالهم، ويُقبلوا على منهج ربهم، وينصروا دينه، فإذا حققوا ذلك فإنَّ الله سينصرهم وسيهلك عدوهم ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

وفي السورة إشارة إلى أن النصر قريب إذا سلك الناس طريقه، أمَّا إذا تنكَّب الناس الطريق، وأخذوا يبحثون عن النصر والعز والتمكين في المناهج الأرضية كالديمقراطية والعلمانية والليبرالية والاشتراكية أو غيرها من المناهج الطاغوتية، فإنَّ النصر سيكون بعيدًا بل محالًا.

كما أن في سورة الحشر إشارة واضحة إلى أن الهلاك متحقق في الوقوف في وجه الحق وتعذيب أهل الحق أو مطاردتهم أو سجنهم، فهؤلاء اليهود لما عزموا على قتل الرسول ﷺ بإلقاء الرحى عليه من سطح البيت، مكر الله بهم فأذلهم وأخزاهم وخرَّب بيوتهم ورحلهم من ديارهم بدون أن يتكلف المسلمون أية تكاليف في ذلك، وإنما دخلوا أرضهم بدون خيل ولا ركاب؛ أي بدون حرب ولا مشقة.

كما أن في الآية إشارة للمسلمين بتجنُّب الغدر والابتعاد عن الخيانة ونقض العهد؛ حتى لا يقع لهم ما وقع لليهود، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

كما أن من الدروس العظيمة في غزوة بني النضير بيان حال المنافقين وكشف العلاقة الوطيدة بينهم وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حتى إن الله سبحانه وتعالى سماهم (إخوانهم) الذين كفروا من أهل الكتاب فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

فعلاقة المنافقين باليهود علاقة حميمة، وصلتهم بهم صلة قوية، يعقدون معهم المؤامرات ويتآمرون معهم ضد المسلمين ويوعدونهم بالدفاع عنهم ونصرتهم وحمايتهم من المسلمين {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} [الحشر: ١١].

ومن الدروس والعبر في غزوة بني النضير الإعلام بأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمن غدر ومكر ولفَّ ودار فإنَّ لفه ومكره سينقلب عليه في النهاية، فهؤلاء اليهود أرادوا قتل الرسول ﷺ والقضاء عليه، فقضوا على أنفسهم وأهلكوا أنفسهم.

كما أن في غزوة بني النضير دليل على جواز تخريب ممتلكات الكفار إذا كانت هناك ضرورة حربية، كما فعل النبي ﷺ حيث قطع نخيلهم وأحرق بساتينهم.

(٥)
غزوة دومة الجندل[1]

❖❖❖

البداية .. في شهر ربيع الأول ٥هـ الموافق أغسطس ٦٢٦م، تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قبيلة قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، في حدود قبائل الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة)، والمشرفة على سوق (دُومة الجندل) الشهير.

وتقع دُومة على بُعد ٤٥٠ كيلو مترًا شمال المدينة النبوية. وذكر الحموي في معجم البلدان أنها سُميت بذلك نسبة إلى حصن بناه دوماء بن إسماعيل.

أما الجندل: فهي الحجارة، ومفرده: جندلة. وعلى هذا يكون معنى اسم المنطقة: «الحصن الذي بناه دوماء في منطقة مليئة بالحجارة». وكان يُضرب المثل بمناعة حصن دومة وشدته.

سبب غزوة دومة الجندل:

يقول الباحث الإسلامي د. عبد الرحيم الشريف : وصلت الأنباء إلى المدينة النبوية المشرفة بتجمع بعض قبائل المشركين عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، ثم الاعتداء على المدينة لاحقًا. ومن الملاحَظ أن دومة الجندل تعَدُّ بلادًا نائية بالنسبة للمدينة النبوية؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة.

فحتى لو أن المسلمين أغفلوا أمرها وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها، ما لامهم أحد

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٠ " – عرض / ربيع سكر – ١٩ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفضِّ هذا التجمع فورًا لما يلي:

١- السكوت على هذا التجمع وما شأكله يؤدي -بلا شك- إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢- وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب؛ مما يضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣- فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم؛ لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر.

٤- حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية المهمة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

٥- الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية وليست مقصورة على العرب.

الخروج إلى غزوة دومة الجندل:

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار؛ حتى يخفي مسيره، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء. وسار حتى دنا من القوم، عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحدًا، فقد ولَّوا مدبرين، وتركوا أنعامهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلًا منهم، وأحضروه إلى الرسول ﷺ، فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم. فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، وبعث

البعوث، وبث السرايا، وفرّق الجيوش، فلم يصب منهم أحدٌ، وعاد المسلمون إلى المدينة. وفي أثناء عودتهم وادعَ الرسولُ عيينةَ بن حصن الفزاري، واستأذن عيينة رسولَ الله ﷺ في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلًا منها.

دلالات غزوة دومة الجندل:

١ - إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ما يقرب من خمسة وستين كيلو مترًا، لدليل قاطع على ما وصلتإليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وإن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف مقاتِل.

٢ - كانت غزوة دومة الجندل بمنزلة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية.

٣ - كان في سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدها من قبل؛ ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد.

المستفاد من غزوة دومة الجندل:

هي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملًا على المسلمين، حيث ضَوَى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتسبيحها.

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ، وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في

الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة؛ حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه.

إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها -عليه الصلاة والسلام- ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلّم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويمتحن ويقوّم؛ ليكون هذا استعدادًا لمعارك قادمة.

وأعجب من هذا كله:

عيَّنَ رسول ﷺ الصحابي الجليل سباع بن عرفطة الغفاري -رضي الله عنه- واليًا على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًّا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًّا، بل من قبيلة غفار التي كانت تمارس قطع الطريق والسطو المسلح على القوافل التجارية، حتى إنها كانت تشتهر بـ(سراق الحجيج) عند العرب!!!

- عجبًا لمحمد ﷺ كيف يثق بمَن كان حاله كذلك قبل بضع سنوات، يأمنه على عاصمة دولة الإسلام وبيت مال المسلمين ونسائهم وذراريهم؟!!

- عجبًا لهذا الدين العظيم الذي أعاد صياغة بني غفار ونقلهم من حال سرقة حتى الحجيج إلى حمل مفاتيح بيت مال الدولة الإسلامية وصيانتها، في زمن قياسي، ودون الحاجة إلى انتظار موت ذاك الجيل!

- عجبًا لأولئك الصحابة الذين لم يعترضوا على اختيار رجل من قبيلة غفار ليكون أمينًا

على بيوتهم وعوراتهم!

إنها النبوة ولا شيء سوى النبوة:

لا بُدَّ لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًّا كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبي ﷺ وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة؛ لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها.

إذ ما كان لقائد عسكري ذي أهداف دنيوية، أن يغامر تلك المغامرة بالابتعاد عن بلده مسافة بعيدة جدًّا، تاركًا مدينته وأهله ومُلكَه معرضين لاحتمالات الأذى ممَّن يترصدها من المنافقين والأعراب والمشركين واليهود.. وفي حراسة شخص ليس من زعماء المدينة، ولا من كبار المهاجرين!! فضلًا عن كونه من بني غفار. ولكنها النبوة [1].

دومة الجندل في سيرة ابن هشام:

جاء في كتاب سيرة ابن هشام المسمى بـ«السيرة النبوية» : غزوة دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس ، موعدها : قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام من مقدم رسول الله ﷺ بها أشهرا حتى مضى ذو الحجة وولى تلك الحجة المشركون وهي سنة أربع ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل .

استعمال ابن عرفطة على المدينة : قال ابن هشام : في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سِباع بن عرفطة الغفاري . رجوع رسول الله : قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيدا ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

(١) موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(٦)
غزوة بني المصطلق[1]
(أ)

حادثة الإفك .. كشفت خطر المنافقين على المجتمع المسلم

غزوة بني المصطلق غزاها الرسول ﷺ في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ويقول الكاتب مراد باخريصة : سبب الغزوة أن رئيس بني المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ فندب النبي وأسرع في الخروج فخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها فلما بلغ الخبر إلى بني المصطلق وتأكد لديهم أن رسول الله ﷺ قد تحرك بجيشه إليهم وكانوا قد أرسلوا جاسوسًا ليأتيهم بخبر الجيش الإسلامي فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب وأصابهم الرعب ودب في قلوبهم الخوف من تحرك رسول الله ﷺ وجيشه إليهم.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى مكان يقال له المريسيع فيه ماء من مياههم تهيأ للقتال وصف ﷺ أصحابه وأعطى الراية لأبي بكر الصديق وراية الأنصار لسعد بن عبادة فبدأت المعركة بالترامي بالنبل فترامو بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله ﷺ أن يحمل المسلمون على المشركين حملة رجل واحد فحملوا عليهم حملة رجل واحد فانهزم المشركون وقتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر وسبى المسلمون نسائهم وذراريهم وأموالهم ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو وكان من جملة نساء السبي بنت الرئيس رئيس بني المصطلق جويرية بنت الحارث وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها الرسول ﷺ فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة من بني المصطلق وقالوا أصهار الرسول ﷺ.

ولما انتهى رسول الله ﷺ من الغزوة بقي مقيمًا على ماء المريسيع وفي يوم من الأيام ازدحم

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١١ " – عرض / ربيع سكر – ٢١ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام.

رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار على الماء فاقتتلا فصرخ الأنصاري يا معشر الأنصار وصرخ المهاجري يا معشر المهاجرين فقال رسول الله ﷺ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة فلما وصل الخبر إلى عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين غضب غضبًا شديدًا على المهاجرين وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على الحاضرين حوله فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم فأخبر زيد بن أرقم رسول الله ﷺ بما قاله عبدالله بن أبي بن سلول وكان زيد ممن حضر وسمع مقالة ابن أبي سلول فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله: مُرْ عَبَّاد بن بشر فليقتله فقال النبي ﷺ: (فكيف يا عمر بن إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل)، وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس وانطلقوا، فقال أسيد بن حضير يا رسول الله : لقد رحت في ساعة منكرة؟ فقال له: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخَرَز ليتوجوه يعني ليجعلوه ملكًا عليهم- فإنه يرى أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا. فعل ذلك ﷺ ليشغل الناس عن الحديث ويصرفهم عن الافتتان والبلبلة والاضطراب.

أما ابن أبي فإنه لما علم أن زيد بن أرقم قد أوصل الخبر إلى رسول الله ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله أنه ما قال هذا الكلام ولا تكلم به فلما حلف أنه ما قال قال بعض الأنصار يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله الرجل قال زيد فأصابني هم لم يصبني مثله قط فجلست في بيتي فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون ١: ٤) إلى قوله: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون : ٨) فبعث النبي ﷺ عليًا إلى زيد ليقرأ عليه هذه الآيات فقرأها عليه وقال: إن الله قد صدقك.

وكان ابن هذا المنافق وهو عبدالله بن عبد الله بن أبي بن سلول رجلًا صالحًا فتبرأ من أبيه ووقف له على باب المدينة واستل سيفه، وقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل فلما جاء النبي ﷺ أذن له وخلى سبيله وقال يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه.

واقعة الإفك:

وما إن انتهت هذه الواقعة الأليمة والصور المشينة من صور الزندقة والنفاق حتى وقعت واقعة أخرى أشد منها وأخطر إنها واقعة الإفك وحديث الإفك وقصة الإفك التي أربكت المدينة شهرًا كاملًا وأفشت فيها سحب الشك والارتياب والاضطراب والبلبلة في عرض أم المؤمنين الطاهرة المطهرة الصديقة بنت الصديقة زوجة رسول الله ﷺ رضي الله تعالى عنها وعن أبيها.

- ملخص هذه القصة أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة غزوة بني المصطلق- بقرعة أصابتها فخرجت عائشة لقضاء لحاجتها ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه فرجعت تبحث عنه في الموضع الذي فقدته فيه فجاء النفر الذين كانوا يحملون هَوْدَجَها- وهو البيت الصغير الذي يصنع من الحطب ويغطى بقطع من القماش ويوضع فوق الجمل - فظنوها فيه فحملوا الهودج ولم ينكروا خِفَّته لأنها رضي الله عنها كانت خفيفة اللحم وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حمله واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال فلما رجعت إلى مكان الجيش بعد أو وجدت عقدها إذا بالمكان ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المكان وظنت أنهم

سيفقدونها فيرجعون في طلبها فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فأناخ لها راحلته وما كلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا استرجاعه ثم سار بها يقودها حتى قدم بها فلحق الجيش فلما رأى الناس ذلك تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به فوجد الخبيث عبدالله ابن أبي بن سلول متنفسًا له فأظهر سمومه ونفاقه وحقده فجعل يستجلي الأمر ويستوشيه ويشيعه ويذيعه وينشره بين الناس فلما قدموا المدينة أفاضوا في الإفك والكذب والبهتان ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما كثرت الأقاويل والأراجيف أشار عليه بعضهم بأن يفارقها ويأخذ غيرها وأشار عليه بعضهم بإمساكها فقام النبي ﷺ على المنبر يستعذر من عبد الله ابن أبي ويقول من يعذرني في رجل بلغ أذاه في أهل بيتي فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج، وهي قبيلة ابن أبي -الحمية القبلية، فجري بينهما كلام فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

-أما عائشة رضي الله عنها فقد مرضت بعد رجوعها شهرا كاملًا ولم تعلم عن حديث الإفك شيئًا ولم يخبرها رسول الله صلى الله ليه وسلم بشيء سوي أنها كانت لا تعرف اللطف الذي كانت تعرفه من رسول الله ﷺ فلما نَقِهَتْ من مرضها خرجت مع أم مِسْطَح إلى البَرَاز ليلًا فعثرت أم مسطح في مِرْطِها، فدعت على ابنها فاستنكرت ذلك عائشة منها فأخبرتها بالخبر وقصت عليها القصة وأعلمتها بما يدور بين الناس من الحديث عنها فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ لتأتي أبويها فتستيقن الخبر فعرفت جلية الأمر فجعلت تبكي، فبكت لليلتين ويومًا لم تكن تكتحل بنوم ولا يرقأ لها دمع حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك اليوم إلى بيت أهلها، فتشهد ثم قال: (أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه) فقالت عائشة رضي الله عنها لأبيها: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال فقال أبوبكر والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقالت لأمها أجيبي رسول الله ﷺ عني فيما قال فقالت أمها والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقالت عائشة: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم

أني بريئة - لا تصدقونني ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتُصَدِّقُنِّي، والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشها، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ فَسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة، أما الله فقد برأك)، قالت فقالت لي أمي: قومي إليه.. فقالت عائشة والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل.

- وأنزل الله بشأن الإفك عشر آيات بدأها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ١١).

(ب)

غزوة بني المصطلق .. أفشلت مخطط المنافقين لتمزيق وحدة المسلمين [1]

نتابع حديثنا عن غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع التي تعد من الغزوات المهمة في حياة المسلمين في عهدهم الأول؛ لأنها كانت مرتعًا خصبًا للمنافقين، حيث اتخذوا فيها صنوفًا من الكيد للإسلام والمسلمين، ولنبي الإسلام ﷺ، فقد حاولوا تمزيق وحدة المسلمين بإيجاد الشقاق بين المهاجرين والأنصار، وإعادة النعرة الجاهلية، كما وقعت فيها حادثة الإفك.

وهذه الغزوة (غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع) وإن لم تكن كبيرة من الناحية العسكرية، إلا أنها اشتملت على أحداث جسام، وافتضح فيها المنافقون.. وتسمى هذه الغزوة بغزوة المريسيع وهو ماء لبني خزاعة، أو غزوة بني المصطلق وهم من بطن خزاعة، وقد ساهموا مع قوات قريش في معركة أحد. جرت أحداثها في شعبان سنة خمس عند عامة أهل المغازي، وسنة ست على قول ابن إسحاق.

وسببها أنه لما بلغ الرسول ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار -رأس وسيِّد بني المصطلق- سار في قومه، وبعض من حالفه من العرب، يريدون حرب رسول الله ﷺ، وقد ابتاعوا خيلًا وسلاحًا، واستعدوا للهجوم على المدينة، بعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ ليستطلع له خبر القوم، فرجع بريدة وأكد للنبي ﷺ صحة هذه الأخبار..

فأسرع النبي ﷺ في الخروج إليهم في سبعمائة مقاتل وثلاثين فرسًا، وحيث إنهم كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وكانوا قد شاركوا في غزوة أحد ضمن جيش المشركين، أغار عليهم النبي ﷺ وهم غارُّون (غافلون). فعن عبد الله بن عمر قال: «أغار النبي ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث» (رواه البخاري).

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٢ " – عرض / ربيع سكر – ٢٢ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

وفي هذه الغزوة كشف المنافقون عن مدى حقدهم على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ، فقد ازدادوا غيظًا بالنصر الذي تحقق للمسلمين، وسعوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما فشلت محاولتهم، سعى عبد الله بن أبي بن سلول -رأس المنافقين- إلى عرقلة جهود الرسول ﷺ في الدعوة، ومنع الأموال من أن تدفع لذلك، وتوعّد بإخراج النبي ﷺ من المدينة عند العودة إليها، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وحين علم النبي ﷺ بذلك، استدعاه هو وأصحابه (المنافقين)، فأنكروا ذلك، وحلفوا بأنهم لم يقولوا شيئًا، فأنزل الله سورة المنافقين، وفيها تكذيب لهم ولأيمانهم الكاذبة، وتأكيد وتصديق لما نقله عنهم الصحابي زيد بن أرقم، وذلك في قول الله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

ولقد استأذن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول في قتل أبيه؛ لما قاله عن رسول الله ﷺ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وأمره بحسن صحبته.

دروس وعبر:

ومن خلال أحداث هذه الغزوة، يمكن استخلاص العديد من الدلالات والدروس المهمة، وهي كثيرة، منها:

- فضل جويرية بنت الحارث:

كان من بين الأسرى الذين أسرهم المسلمون جويرية بنت الحارث بن ضرار سيِّد قومه، وكانت بركة على قومها، فقد ذكرت أم المؤمنين عائشة «أن جويرية أتت إلى النبي ﷺ وقالت له: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي، فجئت أستعينك على كتابي. فقال النبي ﷺ: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك».

قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. قالت (عائشة): وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق.. فلقد أعتق تزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها» (رواه أحمد).

ومن ثَمّ تعتبر غزوة بني المصطلق (المريسيع) من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها، وكان زواج النبي ﷺ بجويرية – رضي الله عنها – السبب في ذلك؛ إذ استكثر الصحابة على أنفسهم أن يكون أصهار رسول الله ﷺ تحت أيديهم أسرى، فأعتقوهم جميعًا، وهذه صورة من صور الحب والأدب من الصحابة مع رسول الله ﷺ أدت إلى إسلام القبيلة كلها.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث – رضي الله عنها – له أبعاده وأهدافه، والتي تحققت بإسلام قومها؛ فكثر عدد المسلمين، وعاد هذا الزواج على المسلمين بالدعم المادي والمعنوي.

وكانت رضي الله عنها مع عبادتها وصلاحها، تروي من أحاديث النبي ﷺ، ولقد حدَّث عنها عبدالله بن عباس وكريب ومجاهد ويحيى بن مالك الأزدي، وبلغت أحاديثها سبعة، أضافت بها -إلى شرف صحبة النبي ﷺ وأمومتها للمسلمين- تبليغها للأمة ما تيسر لها من أحاديث المصطفى ﷺ.

-لا للعصبية والفرقة:

عند ماء المريسيع كشف المنافقون عن حقدهم الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فسعوا -كعادتهم دائما إلى يومنا هذا- إلى محاولة التفريق بين المسلمين، فبعد انتهاء الغزوة -كما يقول جابر بن عبد الله-: «كسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجريّ: يا للمهاجرين!

فاستثمر المنافقون -وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول- هذا الموقف، وحرضوا الأنصار على المهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» (رواه البخاري).

فمع أن اسم المهاجرين والأنصار من الأسماء الشريفة التي تدل على شرف أصحابها، وقد سماهم الله بها على سبيل المدح لهم، فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأولونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﷺمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]، إلا أنّ هذه الأسماء لما استعملت الاستعمال الخاطئ لتفريق المسلمين وإحياء للعصبية الجاهلية، أنكر ذلك رسول الله ﷺ إنكارًا شديدًا، وقال قولته الشديدة: «دعوها فإنها منتنة»؛ وذلك حفاظًا على وحدة الصف للمسلمين..

فالإسلام ينبذ العصبية بجميع ألوانها، سواء كانت عصبية تقوم على القبليّة، أو الجنس، أو اللون أو غير ذلك.

-عزة الإيمان وذل النفاق:

ظهر ذلك في موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، لما سمع بما قاله أبوه «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فقال لرسول الله ﷺ: «بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمُرْني به، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر فأدخل النار». فنهاه النبي ﷺ، وقال له: «بر أباك وأحسن صحبته» (رواه ابن حبان).

فلما وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدى عبد الله لأبيه، وقال له: قف، والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول. فأذن له رسول الله ﷺ.. فظهر بذلك مَنِ العزيز ومَنِ الذليل.. ولقد ضرب عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول -رضي الله عنه- بهذا الموقف مثالًا عمليًا للإيمان في أوثق عُراه، وهو الولاء والبراء.

حكمة وصبر النبي ﷺ:

قابل النبي ﷺ ما فعله عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، بمثال رفيع في الحكمة والصبر، والعفو وحسن الصحبة، فلو أمر النبي ﷺ أو أذن لعبد الله بن عبد الله بن أبي بقتل أبيه لقتله، لكنه ﷺ قال له: «بر أباك وأحسن صحبته».. فلم يكن النبي ﷺ ينتقم أو يغضب لنفسه، بل يغضب لله عز وجل.

ثم إن هذا الموقف من رسول الله ﷺ فيه محافظة على وحدة الصف الداخلية، وعلى

السمعة الطيبة؛ ففرق كبير بين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وبين أن يتحدث الناس عن حبّ أصحاب محمد لمحمد ﷺ.

وهكذا كانت هذه غزوة بني المصطلق رغم صغرها من الناحية العسكرية، إلا أن فيها من الدروس والمعاني الكثير، التي ينبغي أن يقف المسلمون معها للاستفادة منها في واقعهم.

ولنا أن نستفيد من هذه الغزوة دروسًا وعظات، نستخلصها من الحوادث المصاحبة لهذه الغزوة، وخاصة حادثة الإفك التي أظهرت خطر المنافقين وجرأتهم، حتى نالوا من عرض رسول الله ﷺ، ثم ما ينبغي على المؤمن فعله عند سماع الشائعات من حفظ اللسان وعدم الخوض فيها ، يضاف إلى ذلك الصبر، وعدم التعجل في الأمور عند الابتلاء، أسوة بالنبي ﷺ، كما برز في هذه الغزوة خلق العفو والتسامح، وتجسد ذلك في موقفه مع اليهود وخاصة مع رأس المنافقين أبي بن سلول .

ومما يشار إليه في أحداث هذه الغزوة نزول سورة المنافقون، التي كشفت أخبار المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم، وفضحت أكاذيبهم.

❖❖❖

(٧)
غزوة الخندق[1]

وقعت معركة الخندق» الأحزاب « في العام ال ٥ من الهجرة بعد ان وصل في شوال من عام ٥هـ إلى حدود المدينة المنورة ١٠ آلاف مقاتل مشرك من قريش وغطفان وبني سليم وغيرهم بالإضافة إلى يهود المدينة الذين تحالفوا مع مشركي قريش ضد الرسول ﷺ. وهي معركة لم يحدث فيها قتال شديد، وقتلى المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع، ومع ذلك لم تكن معركة عادية، بل كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام والمسلمين، وكانت ابتلاءً وامتحانًا، وتمييزًا بين المؤمنين والمنافقين .. ومن ثم تُعد غزوة الأحزاب من أهم الغزوات التي مرت بالمسلمين بالمدينة المنورة، ليس فقط لخطورتها أو صعوبتها، أو لانتصار المسلمين فيها، ولكن لأنها كانت غزوة فاصلة بين مرحلتين رئيستين من مراحل الحياة للدولة الإسلامية في المدينة المنورة..

ويقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : لم يكتف رسول الله بحفر الخندق حول المدينة ، بل جمع الصحابة ثلاثة آلاف، ونظم نقاط الحراسة للخندق، وفرق للقتال، وكتائب للمقاومة، حتى يمنع المشركين من تخطي الخندق تحت أي ظرف.

وكان وقع المفاجأة مهولا على المشركين، إنها مكيدة ما عرفها العرب من قبل في فنون القتال، لقد أعدوا العدة لكل شيء، إلا أمر هذا الخندق المدهش.

بدأ المسلمون في رشق المشركين بالنبال لكي يمنعوهم من عبور الخندق أو ردمه، وحاول المشركون بكل ضراوة أن يقتحموا الخندق، ونجح بعضهم فعلا في العبور من مكان ضيق في الخندق بفرقة على رأسها أحد أبطالهم اسمه عمرو بن عبد ود، ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، ولكن تصدى لهم المسلمون، حيث حدثت مبارزة رهيبة بين عمرو بن عبد ود وعلي بن أبي طالب حتى قتله البطل الإسلامي

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٣ " – عرض / ربيع سكر – ٢٣ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

العظيم علي بن أبي طالب، وهرب بقية الرجال الذين جاءوا معه، وتكررت محاولة المشركين مرة واثنتين، وعشرة، وتصدى أسيد بن حضير في كتيبة من مائتي مسلم لفرقة فرسان خالد بن الوليد واستطاع أن يردهم منهزمين

كان الصراع يدور لفترات طويلة حتى أنه في أحد الأيام ظل المسلمون يدافعون عن الخندق من قبل صلاة العصر إلى ما بعد المغرب فضاعت عليهم صلاة العصر، وكان هذا الحدث فريدًا في السيرة، وانزعج المسلمون بشدة لأنهم أضاعوا الصلاة، وقال كما جاء في البخاري عن علي : «مَلأَ اللهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ».

بل إن مسند أحمد والشافعي ذكرا أن الكفار أضاعوا على المسلمين في يوم آخر صلاة الظهر والعصر والمغرب، فصلاها المسلمون جميعا مع صلاة العشاء.

كانت المقاومة فعلًا شرسة، وأصيب فيها بعض الصحابة، وطال الحصار.

لم يكن يومًا أو اثنين، ولا أسبوعًا أو اثنين، بل لمدة شهر كامل، وكان الموقف صعبًا على المسلمين، كما كان صعبًا على الكافرين.. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[النساء:١٠٤].

خيانة بني قريظة:

وأسقط في أيدي الكافرين، واحتاروا في كيفية حل موقفهم ذلك، حتى جاءهم الحل أخيرًا، وكان من عند اليهود. فاليهود مثلما جمعوا هذه الأعداد كلها ما زالوا يفكرون في استئصال المسلمين، وبدءوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من ذلك، وكان مع المشركين أحد زعماء اليهود، وعتاتهم وهو حيي بن أخطب، وكان من أشدهم كفرًا وحقدًا وغلًا وحسدًا، فكر في الأمر، فلم يجد له مخرجًا إلا في يهود بني قريظة.

بنو قريظة كما ذكرنا كانوا في الجنوب الشرقي للمدينة، فلو فتحوا الباب من جهتهم لدخول المشركين المدينة، لانتهت المدينة، فماذا يحدث لو حاربوا مع المشركين، وراقت تلك الفكرة للمشركين جدًّا، ولم يتبق إلا إقناع بني قريظة بمخالفة العهد مع رسول الله، والسماح للمشركين بدخول المدينة لاستئصال الشعب المسلم بكامله، وذهب حيي بن

أخطب لأداء مهمته القذرة والتقى بزعيم بني قريظة كعب بن أسد، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يرجعوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

لكن حيي ظل يكلم كعبًا ويزين له، ثم وعده إن تخلت قريش وغطفان عنه أن يدخل معه في حصنه، ويتحمل معه ما يحدث بعد ذلك.

وتحت تأثير شيطان بني النضير وقع شيطان بني قريظة، وقرر التحالف مع المشركين لتنفيذ ما ذكره حيي: لا نبرح حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

وقضى التحالف ليس فقط بفتح باب للمشركين لدخول المدينة، بل وتجهيز فرق عسكرية للحرب ضد المسلمين. كارثة! المدينة على أبواب هلكة قريبة.. ماذا يحدث لو تمكن عشرة آلاف مسلح إضافة إلى يهود بني قريظة من اقتحام المدينة؟ لا أحسب أن أحدًا كان سيبقى حيًا في المدينة آنذاك.

يجب أن نضع هذا الأمر في اعتبارنا لكي نفهم رد فعل الرسول على بني قريظة لِمَا بدر منهم من خيانة.

على الفور نقلت المخابرات الإسلامية إلى رسول الله نبأ خيانة اليهود له، نعم، كان رسول الله على حذرٍ من اليهود، يعلم أنهم لا يرقبون في مؤمن إلًا ولا ذمة، ولذلك وضع عليهم هذه المراقبة.

وخبروني بالله عليكم: هل من قبيل المصادفة أن يخون مائة بالمائة من اليهود في تعاملهم مع الرسول ؟ هل من قبيل المصادفة أن يظهر الانحراف في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة؟

لا شك أن هذه ليست مصادفة ولا شك أن هذا الواقع لا بد أن ندركه جميعًا، ذكره ربنا في كتابه حيث قال: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة:١٠٠].

هكذا في كل مرة، يجب أن يخونوا، ويغدروا، وهذه ليست مصادفة، هذه قاعدة، وطبيعة متأصلة في نفوسهم، لا عهد لهم ولا ذمة.

وصل الخبر للرسول ، وقبل أن يتخذ أي قرار أراد أن يستوثق من الخبر، أرسل مجموعة من الصحابة للتأكد، فيهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة وغيرهم، ولما تكلموا معهم جهر يهود بني قريظة بالسوء، وسبوا الرسول وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.رجع الصحابة بسرعة إلى رسول ، وقالوا: عضل وقارة. أي غدر كغدر عضل وقارة بالصحابة عند ماء الرجيع.

حزن الرسول حزنًا شديدًا لهذا الخبر لدرجة أنه تقنع بثوبه (غطى رأسه بالثوب) ومكث طويلًا، وفكر فيما سيحدث.ثم رفع رأسه فجأة وقال للمسلمين بصوت عال: «اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِروا يَا مَعْشَر المُسْلِمِينَ بِفَتْحِ اللهِ وَنَصرِهِ». يحاول قدر المستطاع أن يرفع من همة الصحابة .

انتشار خبر خيانة بني قريظة:

وعلى الرغم من محاولاته لتجنب انتشار الخبر إلا أن الله شاء للخبر أن ينتشر، وهذا لحكمة واحدة، الابتلاء والتنقية والتمييز بين صفوف المؤمنين وصفوف المنافقين.

كل ما حدث من الأحزاب وحصار المدينة كان درجة من درجات الابتلاء، أما الآن فقد وصل المسلمون إلى ما أسميه بمرحلة الزلزال، المرحلة التي يزلزل فيها المسلمون زلزالًا لا يثبت فيه إلا الصادقون حقًا، أما المنافقون مهما كانت درجة نفاقهم فلا شك أنهم سيقعون، مرحلة الزلزال، مرحلة خطيرة، لا بد منها قبل أن يأتي النصر، ولكن إذا أتت فمعناها أن النصر قريب إن شاء الله.

لكن المنافقين طبعًا وضعهم مختلف، المشركون من حول المدينة واليهود. لا أمل مطلقًا في نظرهم في النجاة وكان أحدهم يقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وبدأ المنافقون في التسرب من الصف.. الفرار . وبدأ الصف المسلم، والحمد لله، ينقى من الشوائب، من المنافقين، وهذا كله من مبشرات النصر.

وأرسل رسول الله فرقة لحماية الجبهة الداخلية للمدينة المنورة، ويجب أن نفكر في الموقف الجديد بسرعة، لقد أصبح الحصار الآن من قريش وغطفان واليهود ماذا نفعل؟

ابتلاء سعد بن معاذ:

وكأن الله أراد أن يختبر الصدق في كلام سعد بن معاذ، فحدث أمر شاق على المسلمين كثيرًا، ولكنه كان حلمًا لسعد بن معاذ.

لقد أصيب سعد بن معاذ البطل الإسلامي الشاب، أصيب بسهم في ذراعه أو كتفه وكانت الإصابة شديدة خطيرة.

وكانت أزمة فوق الأزمات، وهذا زعيم الأوس وهذا حكيم المسلمين وهذا المطاع في قومه وهذا الحبيب ليس فقط لرسول الله بل لله رب العالمين، سعد بن معاذ قيمة كبيرة جدًا في الإسلام، كانت أزمة كبيرة جدًا، فماذا كان رد فعل سعد لهذه الإصابة؟ شاب يصاب إصابة قاتلة وهو في السابعة والثلاثين من عمره، ماذا يقول؟

قال سعد يدعو الله: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكِ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ، فَأَبْقِنِي لَهُمْ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكِ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا».

يا الله! شاب عنده ٣٧ سنة يرجو الله ألا يموت حتى يجهز على قريش، ويتمنى ألا يلتئم جرحه لكي يموت شهيدًا، عندما يصبح الموت أمنية.

هذه موتة شهيد، يدعو الله ألا تفوته فرصة الشهادة في سبيل الله.

ثم قال في آخر دعائه: «وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ».

حتى في لحظاته الأخيرة لا ينسى غدر بني قريظة، ولا ينسى هموم الأمة الإسلامية.

وكفى الله المؤمنين القتال:

تأزم الموقف جدًا لم يعد في الصف المسلم أحد من المنافقين، وبذل المسلمون جهدهم كله، حفروا الخندق في وقت قياسي، تحملوا في سبيل الله الجوع والبرد، حموا الخندق، ودافعوا عنه بأرواحهم، قاتلوا بضراوة، تعبوا، كافحوا، قاموا بالمشاورات، واجتهدوا في

الدعاء؛ لأن النصر من عند الله.

كان المسلمين يدعون الله تعالى أيام الأحزاب يقولون: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. وكان الرسول يقول: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ».

بعد أن بذل المسلمون كل طاقتهم، ووسعهم ومحاولاتهم، يأتيهم نصر الله، ولا شك، ويأتيهم بطريقة إلهية، وترتيب رباني، حتى يعلم الجميع، ويوقنوا أن النصر من عند الله.

هزيمة الأحزاب:

وتم نصر الله وأرسل رسول الله حذيفة بن اليمان إلى معسكر الكفار ليطمئن على سير الأحداث، وعلى فعل الرياح بهم وعلى أثر الفرقة التي أحدثها نعيم بن مسعود ، فعاد حذيفة بالخبر الجميل وبالنصر العظيم.

لقد عزم الجميع على الرحيل.

كل ذلك بدون قتال.

قال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[الأحزاب:٢٥].

وانتهت واحدة من أعظم معارك المسلمين مع أنه لم يحدث فيها قتال، وكان الله يريد أن يقول لنا، ليس المطلوب هو تحقيق النصر، ولكن المطلوب هو العمل من أجله، المطلوب هو قرار الجهاد، والثبات في أرض المعركة، المطلوب هو صفات الجيش المنصور، أما النصر فينزل بالطريقة التي يريدها رب العالمين، وفي الوقت الذي يريده الله .

***

(٨)
غزوة بني قريظة[١]

في آخر ذي القعدة من السنة الخامسة من الهجرة، نقضت يهود بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، فأمكن الله تعالى المؤمنين منهم، فقضوا فيهم بحكم الله تعالى الذي أنزله. وأكبر دليل على أن اليهود أغدر الناس وأخونهم: أن كل قبائلهم في المدينة نقضت عهودها مع رسول الله ﷺ، فحُقّ عليهم العذاب في الدنيا؛ فمنهم من هُجِّروا وأخرجوا من ديارهم، ومنهم من قُتلوا وسبيت نساؤهم وذراريهم.

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : وإن كانت قصة الأحزاب قد انتهت فقصة بني قريظة لم تنته بعد، اليهود أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين وأعداء الحق وأعداء الأخلاق الحميدة وأعداء كل خير.

رجع الرسول من الخندق بعد صلاة الصبح وذهب إلى بيته بعد غياب قرابة الشهر، وبعد عناء كبير ومشقة بالغة واغتسل ، فإذا بجبريل قد جاء عند الظهر فقال له: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه. أي: نحن الملائكة لم نضعه بعد.

بل في رواية عن السيدة عائشة في الطبري تقول: فكأني برسول يمسح الغبار عن وجه جبريل. أي أن جبريل كان يقاتل قتالًا حقيقيًا في أرض المعركة.

قال جبريل: اخْرُجْ إِلَيْهِمْ.

قال النبي : «فَأَيْنَ؟» فأشار إلى بني قريظة.

وفي رواية أن جبريل قال: «فَإِنِّي سَائِرٌ أَمَامَكَ أُزَلْزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ، وَأَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ».

وهكذا سار جبريل في موكبه من الملائكة، أما الرسول فقد أمر المسلمين بالتوجه السريع

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٤ " – عرض / ربيع سكر – ٢٤ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن – موقع قصة الإسلام – الدكتور راغب السرجاني

إلى بني قريظة، لم يمهلهم حتى يرتاحوا بعد هذا الشهر الصعب من الحرب والحصار، الراحة هناك في الجنة أما الدنيا فدار عمل، قال لهم: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْعَصرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». وهكذا اجتمع الرسول والصحابة في ثلاثة آلاف مقاتل (غير الملائكة) في حصار بني قريظة، واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة.

هل نتصور أن يستمر الحصار كل هذه المدة، بعد جهد ومشقة كان المسلمون فيها منذ شهر بأكمله، ألا يزال بوسعهم أن يحاصروا اليهود، بل ويتحولون من محاصرين إلى محاصرين، لقد تغير الحال في لحظات من الهزيمة إلى النصر.

يُبَدِّلُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلى حَالِ مَا بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا

نهاية الحصار وتحكيم سعد بن معاذ:

وفي نهاية ذلك الحصار قذف الله الرعب في قلوب اليهود، فاستسلموا وخضعوا لحكم رسول الله مع أنهم كان بإمكانهم المطاولة في الحصار، فأمر رسول الله بهم أن يقيدوا، وقيدوا فعلًا، فجاءت الأوس إلى رسول الله، وكانوا محالفين لبني قريظة في الجاهلية، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم.

فقال: «أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟»

قالوا: بلى.

قال: «فَذَاكَ إِلى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ».

قالوا: قد رضينا.

فأرسل رسول الله في طلب سعد بن معاذ؛ لأنه كان في المدينة، لإصابته البالغة التي تعرض لها في الأحزاب، فجاء راكبًا حمارًا، فالتف حوله الأوس، وقالوا له: يا سعد، أجمل في مواليك، فأحسن فيهم؛ فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى لهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي قال للصحابة: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ».

فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك.

قال: وحكمي نافذ عليهم؟

قالوا: نعم.

قال: وعلى المسلمين؟

قالوا: نعم.

قال: وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله إجلالًا له وتعظيمًا.

قال: «نَعَمْ، وَعَلَيَّ».

قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال.

فقال رسول الله : «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ».

وعلى الفور بدأ المسلمون بتنفيذ حكم سعد، فجمعوا الرجال، فقتلوهم، وهكذا قتل من اليهود أربعمائة رجل وفي رواية سبعمائة، وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين ﷺ، وكان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وقاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتي به، وعليه حُلَّة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يُسْلَبَها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله : أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغْلَب.

ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدَر ومَلْحَمَة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه، فقتل.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى، وكان رجلًا لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ، أي أن القتل كان للغادرين فقط، فمن لم يغدر معهم، لم يقتله المسلمون، فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب؟

وليس هناك مجال للقول أنه كان هناك تجاوز في العقاب الذي وقع باليهود في بني قريظة،

فإن هذا ما كانوا يريدون فعله بالمؤمنين منذ أيام قليلة مع كونهم كانوا على العهد، والجزاء من جنس العمل ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

وفاة سعد بن معاذ:

وسبحان الله! بعد ما انتهت قصة بني قريظة استجاب الله لدعوة العبد الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه وسالت منه الدماء حتى خرجت من خارج خيمته ليلقى ربه سعيدًا راضيًا، ويكفيه ما قاله في حقه كما جاء في البخاري، وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله قال: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ».

وصحح الترمذي من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ».

ذلك أن قيمته عظيمة جدًّا في الإسلام، وعند المسلمين، على الرغم من أن كل عمره في الإسلام لم يتجاوز الست سنوات، إلا أن إنجازه يعجز أن يفعله الكثيرون في أعمار طويلة.

الخلاصة:

هذه قصة الأحزاب وبني قريظة، لقد كانت موقعة عجيبة بلا قتال تقريبًا، وكفى الله المؤمنين القتال، ولكنها كانت امتحانًا عظيمًا لم يثبت فيه إلا الصادق حقًّا، وكانت في نفس الوقت غزوة فارقة، فرقت بين مرحلتين رئيسيتين في السيرة، فما قبل الأحزاب شيء وما بعد الأحزاب شيء آخر.

فقبل الأحزاب كان الاضطراب والقلق والمشاكل الكثيرة وعدم الاستقرار، أما بعد الأحزاب فقد نضجت الدولة الإسلامية نضوجًا جعلها قادرة على الوقوف بصلابة في وجه كل أعدائها، لقد رسخت الأحزاب أقدام المسلمين في الجزيرة، ولم يجرؤ بعد ذلك أحد على تحدي هذا الكيان الصلب الجديد.

لقد كان الرسول عميقًا جدًّا في تحليله غزوة الأحزاب بعد رحيل الكفار حيث قال: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

لقد كانت ما بين الهجرة والأحزاب فترة تأسيس الدولة الإسلامية، أما الفترة التي ستأتي بعد الأحزاب فستكون فترة تمكين دين الله في الأرض، سنرى فيها صلح الحديبية وفتح

خيبر ومؤتة وفتح مكة وحنين وتبوك.

سنرى فيها المراسلات إلى ملوك العالم وأمرائه.

سنرى فيها انتشار دين الله في المدن والبوادي.

سنرى فيها تسابق الوفود لإعلان إسلامهم بين يدي الحبيب.

ستكون فترة سعيدة حقًّا، وكل أحداث السيرة سعيدة، وكيف لا، وهي حياة أفضل العالمين، وخير البشر، وسيد الدعاة، وأمام الأنبياء.

من دروس غزوة بني قريظة:

يقول الكاتب الإسلامي إبراهيم الحقيل : في غدر بني قريظة وغدرهم درس لنا ولئن كانت خيانة بني قريظة شاهدة على ذلك، فإن التاريخ مليء بالنماذج التي تدل على هذه السُّنَّة، وتؤكد تلك الحقيقة.. ففي أثناء الحروب الصليبية أسس نصارى الشرق من الأقباط والموارنة لواء كاملًا يعين نصارى الغرب على إبادة المسلمين، ويدل على عوراتهم، رغم العداوة الشديدة بين نصارى الشرق وهم الأرثوذكس، ونصارى الغرب وهم الكاثوليك.

وفي اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وقضائهم على الخلافة العباسية انحاز البعض إلى المغول ضد المسلمين، وهذه النماذج الخائنة تتكرر عبر العصور والدول، وما أكثرهم في هذا العصر، وأشد تمكنهم في كثير من بلاد أهل الإسلام!!

ولئن دلّ التاريخ على هذه الحقيقة فإن في واقعنا المعاصر نماذج منها، ففي اجتياح الصرب للبوسنة كان صرب البوسنة يدلون المحاربين من صربيا على جيرانهم وأبناء وطنهم من المسلمين، ويشاركون العدو الغاشم في إبادة أبناء وطنهم، وكذلك

وكل هذه النماذج السيئة من الغدر والخيانة ما هي إلا صورة مكررة من خيانة بني قريظة، وإذا ما ألمت بأهل أي بلاد ملمة، ودهمها عدوها ظَهَر هؤلاء الخونة على حقيقتهم، وركلوا وطنيتهم، وأعلنوا العداء السافر لمن أحسنوا إليهم، وحفظوا لهم حقوقهم، ولم يكرهوهم على دينهم..

والتاريخ والواقع المعاصر مليئان بالشواهد على ذلك، والكيّس الفطن لا ينخدع

بالشعارات دون الحقائق، ولا يغشى على بصره لحن القول، وكثرة الوعود والعهود.. فكم من وعد أخلف! وكم من معاهد غدر! ولا قوة للمسلمين ولا نجاة لهم من غدر الغادرين، وخيانة الخائنين، ورد كيد الكائدين إلا بالتمسك بدينهم، وتحكيم شرع ربهم، ومخالفة من يريدون إضعاف المسلمين بتبديل دينهم، وتغيير مناهجهم، وحرفهم عن منهجهم، مع أخذ الحيطة والحذر منهم ، وعدم تمكينهم في بلاد المسلمين، والاستعانة بالله تعالى على كل خائن وغادر، وإعداد العُدّة لإرهاب أعداء الخارج، وتخويف أهل الغدر والخيانة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

(٩)
غزوة خيبر[١]

ما كاد رسول الله ﷺ يعود من صلح الحديبية، ويستريح بالمدينة شهرًا من الزمن حتى أمر بالخروج إلى خيبر. فقد كان يهود خيبر يعادون المسلمين وقد بذلوا جهدهم في جمع الأحزاب في غزوة الخندق لمحاربة المسلمين. ولم يهدأ يهود خيبر عن الكيد ضد الإسلام، فكوَّنوا جبهة معادية للمسلمين، واستمالوا قبيلة غطفان والأعراب المجاورين لهم في شمال المدينة، فخرج النبي على رأس جيش لتأديبهم والقضاء على خطرهم. وكانت تلك الموقعة الرابعة بين المسلمين واليهود، فالأولى كانت مع يهود بني قينقاع، والثانية مع بني النضير، والثالثة مع بني قريظة. وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام في مطلع العام السابع الهجري في جيش تعداده ألف وستمائة رجلٍ. وكانت خيبر محصنةً تحصينًا قويًا فيها ثمانية حصونٍ منفصلٌ بعضها عن بعض. وكان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسًا وأكثرها وأوفرها سلاحًا.

الرسول يعطي الراية لعلي بن أبي طالب:

قال المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني: قام الرسول وخطب في الناس، وقال لهم: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ، وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ". وحين قال الرسول هذه الكلمات، وأصبح في اليوم الثاني حتى يُعطِي الراية لمن وعد، قام كل الصحابة متشوِّقين لحمل هذه الراية، فقال: "أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟". فقال الناس: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه. فأرسل رسول الله إلى علي بن أبي طالب، وكان عنده رمدٌ في عينيه، وكان لا يرى إلا بصعوبة، وقال الناس: يا رسول الله، إنه مريض في عينيه. وأصر الرسول مع ذلك على الإتيان بعليٍّ، ووضع الرسول على عينيه من ريقه، وسبحان الله! بَرِئ علي بن أبي طالب، وأصبح يرى كأن لم يكن به أي مرض، وأعطاه الراية. وكان الجميع يرون أن ظروف علي بن أبي طالب لا تسمح له بالقيادة، ولكن الله يسر له ذلك

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة "١٥" – عرض / ربيع سكر – ٢٥ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن – موقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني

الأمر.

الرسول يأمر علي بن أبي طالب بدعوة اليهود إلى الإسلام:

مع كل الجرائم التي فعلها اليهود، وذلك التاريخ الأسود لهم مع المسلمين، إلا أن الرسول كان حريصًا على هدايتهم، ودخولهم في نور الإسلام. قال علي بن أبي طالب: "يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا". فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب موضِّحًا الغاية من الحرب في الإسلام، قال: "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ".

المسلمون يضربون الحصار على خيبر:

وصل الصحابة -رضوان الله عليهم- إلى خيبر، وبدأ الرسول يدرس الموقف، فمن أيِّ الحصون يدخل خيبر؟ فخيبر عبارة عن منطقة ذات حصون كثيرة، وكان حصن ناعم من الحصون القوية في خيبر، واقترب الرسول من هذا الحصن، وأرسل علي بن أبي طالب ليدعوهم إلى الإسلام. وهنا لا يجب أن يقول قائل: إنه لا إكراه في الدين، فلماذا يدعوهم إلى الإسلام ثم إذا رفضوا حاربهم؟ إن الحرب هنا ليست عقابًا لليهود على تركهم للإسلام، وليست عقابًا لهم على رفض الدعوة الإسلامية، ولكن الرسول جاء من المدينة المنورة إلى خيبر ليعاقب اليهود على جرائمهم المتعددة السابقة، وعلى تحزيبهم الأحزاب وحصارهم للمدينة المنورة، وعلى تخابرهم مع المنافقين في داخل المدينة المنورة، وعلى محاولتهم اغتيال الرسول، وعلى تحفيزهم لغطفان أكثر من مرة على حرب المسلمين؛ فلذلك قرر أن يقاتلهم وأن يعاقبهم، ولكنه يريد أن يعطيهم فرصة أخيرة ليرفعوا عن أنفسهم العقاب الذي يستحقونه، فقال: إن أسلمتم رفعنا عنكم العقاب، ونسينا كل ما سبق. وهذه سعة صدر ورحمة من رسول الله، ولكن اليهود رفضوا هذه الدعوة، ورفضوا دعوة علي بن أبي طالب لدخولهم في الإسلام، وقرروا الحرب، واغتروا بقوتهم وأعدادهم وحصونهم.

تحريم الحُمُر الأهلية في خيبر:

احتدم اللقاء بين الصحابة وبين اليهود، فهذا اللقاء لم يكن ساعة أو ساعتين، ولكنه

استمر عِدَّةَ أيام متصلة حتى تسلل اليهود من حصن ناعم وتركوه فارغًا للمسلمين، وكان هذا التسلل ليلًا، وانتقلوا إلى الحصن الذي وراءه، وتحصنوا في حصن الصعب بن معاذ، وتوجه الرسول لإليه ، وحاصره حصارًا شديدًا، وأراد الله أن يبتلي المؤمنين، فأوقعهم في أمر صعب إلى جوار صعوبة الحرب، وهو أمر الجوع؛ وعندما ازداد الجوع على المسلمين، قام بعض رجال الجيش الإسلامي بذبح بعض الحمير للأكل. ولكن الرسول في هذا الموقف الصعب قام ونهى عن أكل لحوم الحُمُر الأهليَّة، وقال: "لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ شَيْئًا وَأَهْرِقُوهَا". إنها التربية الإيمانية العالية! وهذا من أعظم أسباب النصر.

سقوط حصن الصعب وقلعة الزبير في يد المسلمين:

وبفضل لجوء المسلمين إلى الله ، جاء النصر من السماء؛ ففي اليوم التالي فتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حصن قلعة الزبير، وظل الحصار ثلاثة أيام، ثم ألقى الله الرعب في قلب رجل من اليهود فأتى وتسلل من الحصن، وجاء إلى الرسول وطلب الأمان، وقال له: يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا تحاصرهم ما بالوا بك، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم دون أن يشعر المسلمون بهم. وقال اليهودي: فإن قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير ماء. فوصل الرسول إلى هذه المياه وقطعها عن اليهود، فخرجوا إليه وقاتلوا قتالًا شديدًا، واستمر القتال حتى انتصر المسلمون وافتتحت قلعة الزبير، وكان القتال في منتهى الضراوة وبذلك فتح الرسول الحصون الثلاثة الأولى، وهي حصن ناعم والصعب بن معاذ والزبير.

اليهود ينتقلون إلى حصون منطقة الشق:

وبعد هذه الفتوح انتقل اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن (قلعة أُبَيّ) أحد حصون منطقة الشَّق. ودار قتال عنيف ثم هرب اليهود إلى داخل الحصن الذي يليه، وهو حصن النزار وهذا هو الحصن الخامس، ووقف الرسول محاصرا لهذا الحصن عدة أيام، ولكن هذا الحصن كان أمنع حصون هذا الشطر مطلقًا؛ وهنا لجأ الرسول إلى طريقة جديدة في الحرب، فقد أخرج المنجنيق، وكان المسلمون قد استولوا على المنجنيق من بعض الحصون اليهودية السابقة، ويقال: إنها كانت في حصن الصعب بن معاذ. ونصب

الرسول المنجنيق وبدأ يضرب حصن النزار، حتى أحدث المسلمون خللًا في داخل بعض الجدارن في هذا الحصن، ومن هذا الخلل تسلل المسلمون إلى داخل الحصن، ودار قتال من أعنف أنواع القتال في معركة خيبر الرهيبة. وكما ترون استمر اللقاء فترة من الزمان، وكتب الله النصر للمسلمين للمرة الخامسة، وفتح المسلمون الحصن العظيم حصن النزار.

هرب اليهود إلى حصون المنطقة الأخرى، وكان اسمها حصون (الكتيبة)، ولكن اليهود كانت قد أصابتهم هزيمة نفسيَّة كبيرة نتيجة للهزيمة في أكثر من موقعة في خيبر؛ وقد سلم حصنان من دون قتال .

اليهود يطلبون الصلح مع الرسول:

طلب اليهود بعد عدة أيام أن ينزلوا على الصلح، وأن يدخلوا في نوع من المفاوضات مع رسول الله ، وكانت خلاصة المفاوضات في صالح المسلمين مائة في المائة، فقد صالح اليهود الرسول على حَقْن دمائهم، ودماء كل من في الحصون من المُقَاتِلَةِ والذرية والنساء، على أن يتركوا خلفهم الديار والسلاح والأموال والذهب والفضة، ويخرجوا بملابسهم فقط في أكبر هزيمة من هزائم اليهود مطلقًا. والحقيقة أن الانتصار كان كبيرًا بالنسبة للمسلمين، وشرط الرسول في هذه المعاهدة عليهم شرطًا مهمًّا، فقال: "وَبَرِئَتْ مِنكُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا". أي: لو أن اليهود أخفوا أي شيء من الأموال أو من الذهب أو الفضة، فيجوز للرسول أن يقتلهم بهذا الإخفاء للمال أو للذهب أو للفضة. وبالفعل قبلوا هذا الأمر، وبدأ اليهود بالخروج من خيبر.

الرسول يتزوج صفية بنت حيي بن أخطب:

وكانت امرأة كنانة بن أبي الحقيق هي صفية بنت حيي بن أخطب، وتزوجها الرسول ، وأصبحت من أمهات المؤمنين. والحقيقة أن في زواج الرسول من السيدة صفية حكمة كبيرة، ومن هذه الحِكَم أنه رفع درجة السيدة صفية، فهذه بنت ملك أو بنت زعيم من زعماء اليهود، وزوجة زعيم من زعمائهم، فلا يجب أن تُعطى هكذا إلى أي إنسان من المسلمين، فرفع قدرها وعظم من شأنها وتزوجها هو ، بعد أن أعلنت إسلامها.

ثم إن في هذا استمالة لقلوب اليهود عندما يكون بينهم وبين زعيم الدولة الإسلامية أو

نبي هذه الأمة عَلاقة نسب، فهذه قد ترقّق قلوب اليهود وتفتح قلوبهم للإسلام. ثم إنه بذلك الزواج سيمنع الخلاف بين الصحابة؛ لأن أحد الصحابة جاءإليه وقال: "أعطيت دحية الكلبي صفية بنت حيي سيِّدة قريظة والنضير؟". فقد ينظر أحد الصحابة إلى أنه قد أعطى أحد الصحابة شيئًا قد يناسب النبي أو غيره من عموم الصحابة، وبذلك قطع الخلاف بين الصحابة أجمعين، وهذه كانت بداية خير كبير للسيدة صفية، وأصبحت أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروت الكثير والكثير عن رسولنا الكريم .

اليهود يدبرون مؤامرة لقتل الرسول:

هل امتنع كيد اليهود بعد هذه الغزوة، وبعد هذا القتال المرير الذي دار في عدة أيام، والذي بلغ شهرًا أو أكثر من شهر؟ لم يكفّ اليهود عن ذلك، بل استمروا في المؤامرات والكيد والدس إلى درجة أنهم فكروا في قتل الرسول قبل أن يغادروا خيبر؛ فقد اجتمع اليهود ودبروا محاولة لقتل الرسول ، بجعل السم في شاة ليقتلوا الرسول ، ثم أعطوا هذه الشاة لامرأة سلام بن مشكم لتعطيها لرسول الله ، وهذا -دائمًا- دأبُ اليهود الخيانة والغدر، فهل نتعلم من تاريخهم مع المسلمين في العهد النبوي؟!

نتائج فتح المسلمين لخيبر:

عندما سمع اليهود الذين هم في أماكن أخرى بعيدة أو قريبة من خيبر بأنباء خيبر، بدءوا يفكرون تفكيرًا جديًّا في التسليم لرسول الله ، ومن هؤلاء اليهود يهود فَدَك الذين قبلوا أن ينزلوا على نفس الصلح الذي نزلت عليه يهود خيبر، على أن يكون لهم النصف من الثمار مثلما جرى مع يهود خيبر. وكذلك اليهود في وادي القرى قاوموا في البداية بعض المقاومة، ثم إنهم بعد ذلك قبلوا بنفس الصلح، وكذلك يهود تيماء؛ وبذلك حيَّد المسلمون جانب اليهود تمامًا في الجزيرة العربية، ورجع الرسول بعد هذه الغزوة إلى المدينة المنورة في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول سنة ٧هـ؛ أي أنه ظل أكثر من شهر في منطقة خيبر، كما توقع أن يقضي وقتًا طويلًا في خيبر، وبذلك تخلص المسلمون نهائيًّا من خطر اليهود. فإذا أضفنا إلى هذا التخلص ما حدث في صلح الحديبية من تحييد جانب قريش، نجد أن معظم القوى الموجودة في الجزيرة قد تعامل معها الرسول . ولم يبقَ من قوة في الجزيرة إلا قوة غطفان، التي -وإن وجَّه إليها الرسول بعض السرايا- تحتاج هي الأخرى إلى وقفة جادة، وتصرف حكيم وسريع من رسول الله.

(١٠)
فتح مكة[1]

في رمضان في السنة الثامنة للهجرة تحقق أكبر فتح للمسلمين وهو فتح مكة المعقل الأكبر للشرك آنئذ. فقد نقضت قريش الصلح الذي عقدته مع المسلمين في الحديبية ؛ حيث ساعدت قبيلة بكر في حربها ضد خزاعة، وأحسّت قريش بخيانتها، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة؛ ليقوم بتجديد الصلح مع الرسول -ﷺ- ويزيد في مدّته، ولكنه فشل في ذلك، وعاد إلى مكة خائبًا. ثم خرج ثانية عندما اقترب الجيش من مكة، ولم يستطع أن يفعل شيئًا، فأسلم وعاد إلى مكة ليحذر قريشًا من مقاومة المسلمين. و أراد الله أن يتم نوره ويعلي كلمته فجاء فتح مكة، وكان الفتح أعظم انتصارات المسلمين وإيذانا بغروب شمس الكفر والشرك في شبه الجزيرة العربية فكيف تم الفتح، وكيف كان استعداد المسلمين لفتح مكة؟

الأحداث:

إن الفتح المبين الذين أعز الله به جند الإسلام ورد لهم اعتبارهم ورفع به كرامتهم ورءوسهم حتى بلغت عنان السماء فتوجتها، إنه الفتح الأعظم الذي قصم به الله دولة الكفر وأزال به شعائر الشرك ومعالم الطغيان، وأشرقت وجه الأرض مرة أخرى بالتوحيد والتحميد، إنه الفتح العظيم ليس للأرض فقط إنما هو فتح القلوب لدين الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجا..

ولم يكن أشد الناس تفاؤلًا واستبشارًا بأن هؤلاء النفر المستضعفين بقيادة الرسول الذين خرجوا مستخفين من عدوهم فارين بدينهم تاركين ديارهم وأهليهم والدنيا بأسرها وراء ظهورهم خائفين مترقبين، هم هم الذين يعودون بعد ثماني سنوات بجيش كبير

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٦ " – عرض / ربيع سكر – ٢٦ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

وإيمان أكبر لفتح البلد التي أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، لم يكن أكثر الناس تفاؤلًا يظن أن الرسول سيعيد بناء الأمة ويكوّن دولة من مجموعة من الفارين المهاجرين بدينهم تستطيع أن تفتح معقل الكفر وعاصمة الشرك وبؤرة الإرهاب الوثني للمسلمين طيلة عشرين سنة، ولعل ما جرى يكون عبرة وعظة لأصحاب المناظير السوداء الذين لا يرون أبدًا وجه الشمس في أي عمل إسلامي ودعوي ويحكمون عليه بالفشل لا لشيء إلا لانتعاش الباطل في عيونهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سبب الغزوة:

لم يكن يدور في خلد عمر بن الخطاب الفوائد الجمة التي سيجنيها المسلمون والدعوة الإسلامية من صلح الحديبية، لذلك فلقد حزن منها في بادئ الأمر واعترض وتسخط حتى نزل القرآن يصف الصلح بأنه فتح مبين وحقًّا كان هو؛ لأنه كان السبب المباشر لفتح مكة! لأن من بنوده أن من أحب أن يدخل في حلف الرسول دخل ومن أراد أن يدخل في حلف مكة وقريش دخل فدخلت خزاعة في حلف الرسول، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة أيام الجاهلية، وفي شهر شعبان ٨هـ اعتدت بنو بكر على خزاعة وأعانت قريش بني بكر على ذلك بالسلاح والرجال، وعد ذلك خرقًا لبنود المعاهدة والصلح؛ لأن الاعتداء على الحليف بمثابة اعتداء على من يحالفه، وهذا الاعتداء يعتبر مباشرة على الرسول والمسلمين، خاصة أن الإسلام قد فشا وانتشر في خزاعة وقتل في هذا الاعتداء رجال من المسلمين، ولما وصلت الأخبار بذلك للرسول قرر رد العدوان وأخذ القرار الكبير بالسير لفتح مكة، وكان رسول الله قبل أن يأتيه الخبر قد تجهز للجهاد ولا أحد يعلم وجهته حتى أزواجه أمهات المؤمنين.

سفير قريش:

كان أبو سفيان بن حرب من أعقل أهل قريش وأشدهم ذكاء أدرك أن ما فعلته بنو بكر والمتهورون من شباب قريش يعد بمثابة نقض للميثاق وبنود الصلح فخاف من غائلة ذلك وعاقبته فخرج مسرعًا للرسول يطلب منه تجديد الصلح وقد أخبرهم الرسول بمجيئه، فدخل أبو سفيان المدينة ونزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة فأراد أن يجلس على

فراش الرسول فأبت أم حبيبة وقالت له: «أنت رجل مشرك نجس»، وحاول أبو سفيان تجديد الصلح، ولكن الرسول لم يرد عليه شيئًا فحاول الاستشفاع بأصحاب النبي فلم يستطع أحد منهم أن يجير على رسول الله فقام أبو سفيان فآجر نفسه بين الناس عملًا بنصيحة علي بن أبي طالب، فلم يقم أحد لإجارته وتيقن العزم على فتح مكة.

الاستعداد للغزوة:

أمر الرسول الناس بالتجهيز للغزو وصرح لهم بما يريده، ولكنه وللمفاجأة دعا ربه جل وعلا أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى يباغتوها في ديارهم، وزيادة في الإخفاء والتمويه بعث الرسول بسرية في ١ رمضان ٨هـ في اتجاه آخر ليظن الناس أنه متوجه لها.

حادثة حاطب بن أبي بلتعة:

أثناء الاستعداء للغزوة كتب حاطب بن أبي بلتعة وكان من المهاجرين الأولين ومن أهل بدر في لحظة من لحظات الضعف الإنساني التي تؤكد على بشرية الصحابة وعدم عصمتهم برسالة لأهل مكة يخبرهم بالأمر وذلك مع امرأة مستأجرة لذلك، فأطلع جبريل الرسول على ما حدث استجابة لدعوة الرسول بأخذ العيون عن قريش، فأرسل الرسول عليًا والمقداد فأحضرا المرأة واستخرجوا الكتاب منها، ثم دار هذا الحوار بين حاطب والرسول، فقال له الرسول : «ما هذا يا حاطب؟» فقال حاطب: «لا تعجل عليّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملصقًا في قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة، وولد وليس فيهم قرابة يحمونهم، وكل من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاقني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي»، فقال عمر بن الخطاب: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق»، فقال الرسول: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فبكى عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

خروج الجيش الفاتح:

بعد أن أتم الرسول إعداد الجيش وجاءته القبائل العربية المسلمة من كل حدب وصوب خرج الجيش الفاتح في ١٠ رمضان ٨هـ من المدينة إلى مكة واستخلف الرسول في المدينة

أبا رهم الغفاري الملقب بالمنحور، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله وماله فكان بذلك آخر المهاجرين كما إن أبا سلمة هو أول المهاجرين.

كانت هذه المسيرة في رمضان؛ لذلك فإن الرسول قد أمر الجيش بالفطر ليكون أقوى لهم على القتال، ثم أمر كل جندي في الجيش أن يوقد نارًا ليلقوا الرعب في قلب قريش فأوقدوا عشرة آلاف نار، ووصلوا حتى منطقة مر الظهران وقريش لا تعلم شيئًا عنهم.

كان العباس أرحم الناس بأهل قريش فخرج ليلًا يلتمس بعض أهل قريش يخبرهم بالجيش حتى يخرجوا للرسول يستأمنون عنده، وبالفعل يقابل العباس أبا سفيان ويخبره بقدوم الجيش فدخل أبو سفيان مع العباس إلى معسكر المسلمين ليطلب الأمان من الرسول ويراه عمر بن الخطاب فيتربص وراءه ليقتله ولكن العباس يجيره عند رسول الله فيكف عمر عنه، ويقف أبو سفيان بين يدي رسول الله ويعرض عليه الرسول الإسلام فيتلكأ أبو سفيان ويتردد ثم يشهد شهادة الحق، فقال العباس: «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا»، قال الرسول : «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

أثناء تحرك الجيش أمر الرسول بشن حرب نفسية على أبي سفيان ليحدث له هزيمة نفسية ورعب ينقله أبو سفيان لأهل قريش فتخور قوتهم وتسقط مقاومتهم للمسلمين، وهذه الهزيمة النفسية حدثت لأبي سفيان عندما حبسه العباس عند مضيق وادي مر الظهران ليرى مرور كتائب الجيش الإسلامي فأذهله ما رآه من كثافة الجيش وقوته، ودخله الرعب الشديد، فقال للعباس: «والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا»، فقال العباس: «يا أبا سفيان إنها النبوة»، فقال أبو سفيان: «فنعم إذن». كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة المشهور بحماسته وغيرته الشديدة، فلما رأى أبا سفيان قال له: «اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا»، فاشتكى أبو سفيان للنبي ما قال سعد، فنزع الرسول اللواء من سعد وأعطاه لولده قيس.

دخول مكة:

دخل أبو سفيان مكة مسرعًا وصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فسبته زوجته هند، ولكن

الناس عرفوا الجد من كلام أبي سفيان فهرعوا مسرعين لبيوتهم والمسجد الحرام.

رفض بعض المتهورين من شباب قريش وسفهائها إلقاء السلاح وأصروا على مقاومة الجيش المسلم واجتمعوا عند منطقة الخندمة لقتال المسلمين وجعلوا عليهم عكرمة بن أبي جهل.

وزع الرسول جيشه على قسمين الميمنة وفيها قبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم، وجعل عليهم خالد بن الوليد، وأمرهم أن يدخلوا مكة من أسفلها على أن يتولوا القضاء على أي جيب من جيوب المقاومة، والميسرة وعليها الزبير بن العوام ومعه راية الرسول ويدخل مكة من أعلاها، والمشاة وعليهم أبو عبيدة بن الجراح.

دخل الرسول مكة على راحلته وهو يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل المسجد الحرام، ومن حوله المهاجرون والأنصار فاستقبل الحجر الأسود، وطاف بالبيت وفي يده قوس يطعن به الأصنام الموجودة بالحرم ليحطمها وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا»، ودخل الكعبة وطهرها مما كان بها من الصور ثم صلى فيها ركعتين.

العفو النبوي:

بعد أن صلى الرسول داخل الكعبة فتح بابها ثم أخذ بعضادتي الباب وخطب فيهم ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

لم يمنع العفو العام الذي أصدره الرسول قراره بإهدار دماء رجال من أكابر المجرمين الذين كانت عداوتهم وشرورهم أكبر من غيرهم منهم عكرمة بن أبي جهل وعبد العزى بن خطل ومقيس بن صبابة وغيرهم، بلغ عددهم تسعة نفر ستة رجال وثلاثة نساء، ولكن الرسول عفا عن بعضهم.

أثناء طواف النبي بالكعبة جاء رجل من قريش اسمه فضالة بن عمير وكان جريئًا وأراد أن يغتال النبي وهو في الطواف، ولكن الله أطلع رسوله على الأمر، فنادى الرسول على فضالة وأخبره بما في نفسه فأسلم فضالة من فوره.

خاف الأنصار من بقاء الرسول بمكة وقالوا: «أترون رسول الله إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها»، فلما علم الرسول قال لهم: «معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم».

كان هذا الفتح من أعظم انتصارات المسلمين وبشارة عظمى بقيام دولة الإسلام في أقوى صورها وإيذانًا بغروب شمس الكفر والشرك في شبه الجزيرة العربية والعالم من بعدها.

obeikandl.com

(١١)

غزوة حنين[1]

وافقت أحداث غزوة حنين السابع من شهر شوال، من السنة الثامنة من هجرة النبي المصطفى ﷺ، ودارت رحاها في وادي حنين، وهو وادٍ إلى جنب ذي المجَاز، بينه وبين مكة سبعة وعشرون كيلو مترًا تقريبًا، من جهة عرفات. وكان عدد المسلمين الذين اجتمعوا في هذه المعركة اثني عشر ألفًا؛ عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة.

سبب غزوة حنين:

لقد كان فتح مكة كما قال ابن القيم: «الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء... ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا».

وكان لهذا الفتح الأعظم ردّ فعل معاكس لدى القبائل العربية الكبيرة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا (هوازن) و(ثقيف). فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم إلى مالك بن عوف سيِّد (هوازن). وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم.

مجريات غزوة حنين ووقائعها:

وكان مالك بن عوف رجلًا شجاعًا ومقدامًا، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيئ المشورة؛ فقد خرج بقومه أجمعين، رجالًا ونساء وأطفالًا وأموالًا؛ ليُشعر كل رجل وهو يقاتل أن

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٧ " – عرض / ربيع سكر – ٢٩ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن : موقع إسلام ويب وموقع قصة الإسلام.

ثروته وحرمته وراءه فلا يفرّ عنها. وقد اعترضه في موقفه هذا دريد بن الصمة -وكان فارسًا مجربًا محنكًا، قد صقلته السنون، وخبرته الأحداث- قائلًا له: «وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك: فضُحْتَ في أهلك ومالك». فسفَّه مالك رأيه، وركب رأسه، وأصر على المضيّ في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء.

وانتهى خبر مالك وما عزم عليه إلى رسول الله ﷺ، فأخذ يجهز جيشه، ويُعِدّ عدته لمواجهة هذا الموقف. وكان مالك بن عوف قد استبق زمام المبادرة وتوجه إلى حنين، وأدخل جيشه بالليل في مضائق من ذلك الوادي، وفرّق أتباعه في الطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين عند أول ظهور لهم، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وكان رسول الله ﷺ قد عبّأ جيشه بالسَّحَر، وعقد الألوية والرايات، وفرّقها على الناس.. وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليل. وبينما هم ينحطون على ذلك الوادي، إذا بالنبال تمطر عليهم من كل حدب وصوب، وإذا بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانهزم المسلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة لذلك الجمع الكبير.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وهو يقول: «إليّ يا عباد الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار.

وقد روى لنا العباس -رضي الله عنه- هذا الموقف العصيب، وصوَّره لنا أدق تصوير، فقال: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، نادِ أصحاب السَّمُرَة»؛ أي: أصحاب بيعة العقبة. فقال عباس: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي، عَطْفة البقر على أولادها -أي: أجابوا مسرعين- فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار..

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «حمي الوطيس». قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد». قال: فذهبت أنظر، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلًا، وأمرهم مدبرًا -يعني قوتهم ضعيفة، وأمرهم في تراجع وهزيمة-). هذه رواية مسلم في صحيحه. وقد فرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه، والتجئوا إلى الطائف، وتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة، فأرسل رسول الله ﷺ على أثرهم فريقًا من الصحابة، حاصروهم، وقاتلوهم حتى حسموا الأمر معهم.

وهذا الحدث وما رافقه من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى، بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥، ٢٦].

لقد كان موقف رسول الله ﷺ وثباته في هذه المعركة مع قلة من الصحابة - دليلًا ناصعًا، وبرهانًا ساطعًا على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وتحققه بأن نتيجة المعركة سوف تكون إلى جانب الحق. وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنه ﷺ الجموع، وولوا الأدبار، لا يلوي واحد منهم على أحد، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط ساحات الوغى، حيث تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتًا عجيبًا، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارّين، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش، وقوّة العزيمة.

موقف أم سليم:

ومن المواقف المشرفة في هذه المعركة موقف الصحابية أم سُليم رضي الله عنها، وكانت مع زوجها أبي طلحة ﷺ. وقد روت كتب الحديث والسِّيَر بسند صحيح وقائع خبرها.. فعن أنس ﷺ، أن أم سليم - رضي الله عنها - اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم، معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول

الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقاء، انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن.

تداعيات غزوة حنين:

ثم إن من تداعيات هذه المعركة، ما كان من مسألة تقسيم الغنائم -وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة في هذه المعركة- وكانت هذه القسمة من رسول الله ﷺ مبنيَّة على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهَم أول الأمر، فَأُطْلِقَتْ ألسنة شتى بالاعتراض، والقيل والقال.

وحاصل خبر تداعيات تقسيم الغنائم، ما رواه ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القَالَةُ -يعني كثرة الكلام بين الناس- حتى قال قائلهم: لقي -والله- رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا. وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار. فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَة بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسَيْنَاك. أَوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدنيا -يعني شيئًا تافهًا- تَألَّفْتُ بها قومًا ليُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا

ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكتُ شِعب الأنصار. وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض. اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلت -تبللت- لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًّا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرّق الجمع.

غزوة حنين .. دروس وعبر:

لقد كانت غزوة حنين هذه درسًا عظيمًا في العقيدة الإسلامية، وممارسة عمليّة لفهم قانون الأسباب والمسببات؛ فإذا كانت وقعة بدر قد علّمت الجماعة المسلمة أن القلة إذا كانت مؤمنة بالله حق الإيمان، وآخذة بأسباب النصر، لا تضر شيئًا في جنب كثرة الأعداء؛ فإن غزوة حنين قد علّمت تلك الجماعة درسًا جديدًا، حاصله أن الكثرة الكاثرة لا تغني شيئًا، ولا تجدي نفعًا في ساحات المعركة، إذا لم تكن قد تسلحت بسلاح العقيدة والإيمان، وإذا لم تكن قد أخذت بأسباب النصر وقوانينه.

فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلة، وإنما ثمة أمور أخر وراءها، لا تقلّ شأنًا عنها، إن لم تكن تفوقها أهمية واعتبارًا، لتقرير نتيجة أي معركة.

فكانت حنين بهذا درسًا، استفاد منه المسلمون غاية الفائدة، وتعلموا منه قواعد النصر وقوانينه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

ويدل موقف أم سليم في هذه المعركة على مدى حرص الصحابيات -رضي الله عنهن- على مشاركتهم رسول الله ﷺ في دعوته، وتبليغ رسالته، ومواجهة أعدائه.

ومن الدروس المستفادة من هذه المعركة، والعبر المستخلصة منها، حكمة سياسة النبي ﷺ في تقسيم الغنائم وتوزيعها، فقد اختص في هذه المعركة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة بين المقاتلين. وفي هذا دلالة على أن لأمام المسلمين أن يتصرف بما يراه الأنسب والأوفق لمصلحة الأمة دينًا ودُنيا.

ويستفاد من بعض تصرفاته ﷺ في غزوة حنين، أن الدافع الأول وراء مشروعية الجهاد، هو دعوة الناس إلى دين الإسلام، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى الدين القويم، وهو الهدف الأساس الذي جاءت شريعة الإسلام لأجله؛ ولم يكن الهدف من مشروعية تلك الغزوات تحقيق أهداف اقتصادية، ولا تحصيل مكاسب سياسية. يشهد لهذا المعنى موقفه ﷺ من مالك بن عوف -وكان المحرِّك الأساس، والموجه الأول لمعركة حنين- فقد سأل ﷺ أصحابه عن مالكٍ، فقالوا: إنه بالطائف مع ثقيف.

فقال لهم: «أخبروه أنه إن أتى مسلمًا، رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، فأُخبر مالك بذلك، فجاء يلحق برسول الله ﷺ حتى أدركه، فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. والخبر ذكره ابن إسحاق.

كل هذا -وغيره كثير- يدل دلالة واضحة على أن الجهاد في أصله ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الوظيفة الأساس من الجهاد والهدف المرام من تشريعه - دعوة الناس إلى الدين الحق، وضمان حريتهم في اعتناق هذا الدين.

(١٢)
غزوة تبوك [١]

كانت غزوة تبوك بحق خاتمة الغزوات النبوية وأرست السمعة العالمية التي اكتسبها المسلمون بإفزاع الروم أقوى جيوش الأرض وقتها

كان فتح مكة فرقانًا بين عهد التكوين وعهد التمكين وبدون أي مبرر تعرضت للمسلمين أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض وقتها وهم الرومان لإضعاف شوكة المسلمين

نزل رسول الله والمسلمون تبوك فمكثوا فيها عشرين ليلة لم يأتهم فيها أحد من الروم الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب الشديد فلم يجرؤ أحد منهم على الالتقاء مع المسلمين وتفرقت جيوشهم

بعد أن تم للرسول ما أراد من تثبيت أركان هيبة الدعوة الإسلامية قفل راجعًا إلى المدينة ونجاه الله من محاولة اغتيال دبرها ١٢ من أئمة النفاق

غزوة تبوك بالشام فضحت المنافقين وأظهرت كيدهم للإسلام، وجاءت لتميز الصف المسلم وتقوم بتمحيصه من أصحاب النفوس المريضة والمنافقين وطلاب الدنيا، وكانت الأجواء المحيطة بغزوة تبوك في غاية الصعوبة فما أسباب ذلك؟ وكيف تم تجهيز الجيش؟ وكيف كانت مسيرة الجيش إلى تبوك؟

الأحداث :

كان فتح مكة فرقانًا بين عهد التكوين وعهد التمكين فبعد فتح مكة لم يبق بعدها مجالًا للشك في الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا وعظم شأن الإسلام جدًّا وهذا أوغر صدور أعداء الإسلام في شتى بقاع الأرض وعز على الشيطان أن يرى المسلمين يجنون

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٨ " – عرض / ربيع سكر – ٣٠ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن : موقع قصة الإسلام

ثمار كفاحهم الطويل والشاق والتي روَوْها بدمائهم ومهجهم فسول لكل عدو ومتربص بالإسلام أن يبادر بالعداوة ويجاهر بالسوء..

وبدون أي مبرر تعرضت للمسلمين أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض وقتها وهم الرومان، فبعد الصدام الدامي مع المسلمين في موقعة مؤتة سنة ٨هـ وما أسفرت عنه من انتصار مدوي للمسلمين، لم يغب عن ذهن هرقل ضرورة رد الهزيمة بعمل عسكري ضخم وقوي يخضد شوكة المسلمين المتنامية قبل أن يستفحل خطرها وتهدده في عقر داره فأعد هرقل جيشًا عرمرمًا ضخمًا من الرومان والعرب الغساسنة..

وترامت الأخبار للرسول والمسلمين في المدينة بحشود الرومان وأنها قد وصلت لأرض البلقاء بالشام وقيل: إن سبب الغزوة غير ذلك وهو نزول الأمر الإلهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكان الروم في الشام أقرب الناس إليهم وأولى الناس بالدعوة؛ لأنهم أهل كتاب، فعزم رسول الله على جهادهم، وقيل أيضًا: إن سبب الغزوة هو قول اليهود للنبي: «يا أبا القاسم إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء»، فنوى رسول الله غزو الشام، والأرجح والأشهر من هذه الأسباب الأول كما سيظهر من سياق الأحداث.

قام رسول الله في الناس خطيبًا ليحثهم على الإنفاق في سبيل الله وتجهيز جيش العسرة وقال: «من جهز جيش العسرة غفر الله له» فانبرى الناس وتسارعوا في الصدقة وكان هذا اليوم يوم عثمان الذي تصدق بمائتي بعير ومائة فرس وألف دينار ذهبي، فقال له الرسول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، وجاء أبو بكر بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وغيرهم كثير جاءوا بحسب طاقتهم وقدرتهم على النفقة، وأثناء ذلك بلغ رسول الله أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الغزو ويتعللون لهم بالحر وشدة العدو وجني الثمار، فأرسل إليهم الرسول طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت اليهودي ففعل طلحة ذلك، فارتدع المنافقون عن كيدهم وغيهم.

ورغم تسارع الناس بالإنفاق لتجهيز جيش العسرة إلا أن النفقة قد قصرت عن هذا الجيش الكبير والذي لم يخرج المسلمون في مثله حيث بلغ تعداده ثلاثين ألفًا، هذا غير الذين تخلفوا عن هذه الغزوة والذين لم يجدوا ما ينفقونه ولم يكن عند رسول الله ما يعطيهم وهم البكاؤون الذين ورد ذكرهم في القرآن وهم من بني مزينة، وخرج النبي يقود هذا الجيش الكبير يوم الخميس غرة شهر رجب سنة ٩هـ طالبًا تبوك والتي تقع على بعد اثنا عشر مرحلة من المدينة وكان الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك يتعاقبون البعير الواحد مما جعل هذه المسافة تقطع في أكثر من المعتاد.

مسيرة الجيش إلى تبوك:

كانت مسيرة الجيش شاقة جدًّا فالعدو بعيد والحر شديد، حتى إن العطش كاد أن يقتلهم حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيشرب ما في كرشه، فإن لم يجد فيعصر فركه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال عمر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع الله لنا، قال الرسول: «أتحب ذلك؟»، قال نعم، فرفع الرسول يده فلم يرجعها حتى نزل المطر عليهم فسقوا وارتووا، ثم أشار عليه عمر فقال: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها فجاء الناس بأزوادهم، فبارك عليها الرسول حتى ملأ الزاد والطعام كل المعسكر.

ضلت ناقة الرسول ببعض الطريق فخرج بعض أصحابه في طلبها فقال أحد المنافقين وهو زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أمر ناقته، فلما علم النبي ذلك عن طريق الوحي قال: «إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي قد حبستها الشجرة بزمامها فانطلقوا فجاءوا بها».

نزل رسول الله والمسلمون تبوك فمكثوا فيها عشرين ليلة تقريبًا لم يأتهم فيها أحد من الروم الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب الشديد فلم يجرؤ أحد منهم على الالتقاء مع المسلمين وتفرقت جيوشهم داخل بلادهم، وعندها أدرك المتحالفون مع الروم أن أسيادهم القدامى قد ولت أيامهم فأقبلوا على مصالحة المسلمين، فجاء «يحنة بن رؤبة» صحاب مدينة إيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وكذلك أهل حرباء وأذرح وتم أسر ملك دومة الجندل <أكيدر دومة> ودفع الجزية، وكانت الفترة التي قضاها المسلمون في

تبوك لتثبيت أقدامهم في المنطقة وإرساء السمعة العالمية التي اكتسبها المسلمون بإفزاع الروم أقوى جيوش الأرض وقتها وبعدها قرر الرسول الرجوع.

عودة الجيش:

بعد أن تم للرسول ما أراد من تثبيت أركان هيبة الدعوة الإسلامية في تلك البلاد قفل راجعًا إلى المدينة وأثناء رحلة الرجوع حدث أمر عظيم كاد أن يغير مسار الأمة الإسلامية بأسرها لولا فضل الله علينا وعلى الناس أجمعين، حيث حاولت مجموعة من المنافقين مكونة من اثنا عشر رجلًا من أئمة النفاق قتل النبي ، وذلك أن مناديًا من قبل الرسول نادى في الناس أثناء السير: «أن خذوا بطن الوادي فهو أوسع عليكم فإن رسول الله قد أخذ ثنية العقبة»، وكان مع النبي حذيفة وعمار يقودان ناقته، فهجمت مجموعة من المنافقين من الخلف وهي تريد طرح الرسول من على ناقته ثم الفتك به، فغضب الرسول وأمر حذيفة أن يردهم فاستدار حذيفة كالأسد الجسور وتصدى وحده للإثنى عشر وضرب وجه رواحل المنافقين ففروا جميعًا هاربين ودخلوا مع عامة الجيش وعرفهم النبي وصرح بأسمائهم لحذيفة الذي عرف بعد ذلك بصاحب السر، ولما علم الصحابة بما جرى قالوا للنبي: «يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ فقال: «لا أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم».

واصل رسول الله رحلة العودة وفي الطريق قال أحد المنافقين لرفقائه في السفر: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أكذبنا ألسنة وأرغبنا بطونا وأجبننا عند اللقاء، فوافقه منافق مثله وقال آخر وكان مؤمنًا: إني أخشى أني نزل فينا قرآنًا، وبالفعل أطلعه رسول الله على الأمر عن طريق الوحي ونزل فيهم القرآن من سورة التوبة، وجاء المنافق يعتذر للنبي وقد تعلق برحل ناقة النبي يرجوه المغفرة والعذر، ورسول الله لا يلتفت إليه، ويقول له: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، والمنافق يقول له: يا رسول الله، إنما لقطع الطريق وكنا نخوض ونلعب.

قبل أن يدخل النبي المدينة أرسل اثنين من الصحابة وهما مالك بن الدخشم ومعن بن

عدي ليحرقا المسجد الذي بناه المنافقون ليكون وكرًا للتآمر والكيد بالإسلام والمسلمين، وهو ما يعرف في السيرة باسم مسجد الضرار، وقصة هذا المسجد أن أبا عامر الفاسق كان راهبًا من أهل المدينة على دين النصرانية وكان يعلم أن هذا الزمان زمان نبي فترهب وتنسك أملًا أن يكون هو النبي، ولما خاب ظنه وظهر دين الإسلام وجاء النبي للمدينة ودعاه للإسلام فلم يقبل اللعين رغم علمه بصدق النبي ثم خرج اللعين ولحق بهرقل بعد غزوة أحد ومكث عنده فترة يراسل المنافقين في المدينة يعدهم ويمنيهم وأمرهم بأن يبنوا مسجدًا على غرار مسجد قباء ليكون مقرًّا للعمليات ضد الإسلام ووكرًا للدسائس والإشاعات المغرضة وإثارة الشبهات على الإسلام والمسلمين..

وقد انتهوا من بنائه قبيل الخروج لتبوك ودعوا رسول الله للصلاة فيه حتى يعطوه الصبغة الشرعية والرسمية فلا يستطيع أحد أن ينكر عليهم بعدها ولكن الله عصم نبيه من الصلاة في هذا المسجد وأوحى لنبيه بحقيقة الأمر فأمر بإحراقه، واختيار مالك بن الدخشم من النبي في منتهى الفطنة؛ ذلك لأن الناس شكوا في مالك بن الدخشم وظنوه من المنافقين وهكذا أحبط الله كيد المنافقين.

بعد أن دخل النبي والمسلمون المدينة جاءه المنافقون ليعتذروا عن تخلفهم عن الغزوة وحلفوا له كذبًا فقبل رسول الله علانيتهم ووكل سريرتهم لله وجاءه الثلاثة الذين خلفوا وكان أمرهم ما كان ورأى النبي أبا لبابة وأصحابه وقد قيدوا أنفسهم في سواري المسجد وقد حلفوا ألا يفكوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم وكان من أمرهم ما هو معلوم أيضًا.

وأنزل الله في هذه الغزوة كلها سورة كاملة في القرآن هي سورة التوبة أو الفاضحة للمنافقين تقص علينا نفسية المنافقين وكيفية التعامل معهم وتفضح أساليبهم وكيدهم وأهدافهم الدنيئة، وكانت هذه الغزوة بحق خاتمة الغزوات النبوية.